الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد الصديق بن يحي . جيجل .

كلية: الآداب واللغات

قسم : الأدب العربي

قصيدة المديح النبوي في الشعر الأندلسي في عهد بني الأحمر

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر تخصص أدب عربي قديم

من إعداد الطالبة:

- خنيفر فطيمة

تحت إشراف الأستاذة:

- شكور مسعودة

لجنة المناقشة

1	كريمة بورويس	رئيسا
2	مسعودة شكور	مشرفا
3	فاطمة الزهراء حليمي	ممتحنا

السنة الجامعية :

2019/2018 م . 1439 / 1440

بسم الله الرحمن الرحيم

دعـــــاء

بسم الله الرحمـــن الرحـــيم

= = = =

اللهم من اعتز بك فلن يذل،

ومن اهتدى بك فلن يضل،

ومن استكثر بك فلن يقل،

ومن استقوى بك فلن يضعف،

ومن استغنى بك فلن يفتقر،

ومن استنصر بك فلن يخذل،

ومن استعان بك فلن يغلب،

ومن توكل عليك فلن يخيب،

ومن جعلك ملاذه فلن يضيع،

ومن اعتصم بك فقد هدى إلى صراط مستقيم،

اللهم فكن لنا وليا ونصيرا، وكن لنا معينا ومجيرا، إنك

كنت بنا بصيرا

اللهم صل و سلم و بارك على سيدنا محمد و على آله

شكر و تقدير

« بسم الله الرحمان الرحيم »

الآن وقد اكتمل البحث ، لا يسعنا إلا أن نتوجه بشكرنا وحمدنا لله عز وجل على توفيقه لنا

.

كما نتقدم بالشكر الجزيل وتقديرنا الكبير للأستاذة المشرفة **شكور مسعودة** التي لم تبخل علينا بمساعدتها وتوجيهاتها ونصائحها القيمة لنا .

كما لا ننسى كل من ساعدني وأفادني في إنجاز هذا العمل من قريب أو من بعيد.

خنيفر فطيمة

إهـــــداء

إلى . . . .

من انزل النور على قلبه وجعله للعالمين سراجا منيرا سيدي ومولاي رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) جزاه الله خير ما جزى رسولا عن أمته ونبيا عن قومه .

من قال بحقهما من الله (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) أبي الفاضل والأم الكريمة برا وإحسانا .

إلى أخوتي وأخواتي

إلى كل الأهل والأصدقاء الكل باسمه

إلى الكتاكيت: ابو بكر، سرين، منصف، جواد وإيناس

إلى أستاذتي: شكور مسعودة

إلى كل من ساندني في دراستي و لو بكلمة طيبة أو ابتسامة عذبة، إلى كل من حملهم قلبي و لم يسعهم قلمي أهدي عملي.

خنيفر فطيمة

لقد نال الشعر الأندلسي بأغراضه المختلفة اهتمام الدارسين والباحثين الذين بحثوا في أغراضه المختلفة، وجماليات القول فيها، معتمدين مناهج تقليدية، ومناهج حديثة، لكن قد يعود ذلك إلى ضعف في الوازع الديني، أو لطبيعة التكوين الأساسي الذي تلقته فئات المتعلمين المختلفة مستوياتهم، ففي مسح بيليوغرافي للدراسات المنجزة حول المديح النبوي، تكاد تكون الأرقام صغيرة والدراسات بذلك شحيحة.

كان هذا السبب لوحده كافيا لدفعي إلى الاهتمام بهذا الموضوع، مرتكزة فيه على دافعين، الأول شخصي يتمثل في شغفي بهذا النوع من الشعر، الذي هو إحياء لذكرى خالدة في نفوس المسلمين، وهي في الآن نفسه سبب رئيسي في ظهور هذا النوع من الشعر.

و الثاني كون هذا الموضوع كما أسلفت الذكر لم ينل حظه من الرعاية والاهتمام، فكان هذا البحث **"في قصيدة المديح النبوي في الشعر الأندلسي في عهد بني الأحمر"** ، محاولة لكشف اللثام عن هذا النوع من الشعر، والخوض في جماليات القول فيه، مركزة على فترة من فترات التاريخ العربي في الأندلس وهي فترة بني الأحمر، وقد نبع عن هذا الاهتمام إشكال يحاول البحث الإجابة عنه هو: **كيف تم التعامل مع قصيدة المديح النبوي من طرف شعراء بني الأحمر؟ هل لقصيدة المديح النبوي خصوصية تختلف عن القصائد الأخرى؟.**

وقد تفرع عن هذا الإشكال عدد من الأسئلة، لعل أبرزها:

- من هم أهم الشعراء الذين قالوا في هذا النوع؟.
- ما طبيعته في الأندلس وعند بني الأحمر خاصة؟
- هل كان شعراء بني الأحمر في قصائد المديح النبوي مجديدين أم مقلدين؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة، تمت دراسة المديح عند الأندلسيين تحديدا في عهد بني الأحمر في الفصل الأول، ويتبعه الفصل الثاني الذي هو تطبيقي من البحث، وقد كان مخصصا لدراسة نماذج مختارة من قصائد المديح النبوي بالوقوف على لغتها وأسلوبها وإيقاعها.

وقد كان المنهج الذي اتبعته في البحث منهجا تحليليا وصفيا بغرض تحليل النماذج الشعرية تحليلا فنيا، مع استعانة بإجراءات المنهج التاريخي الذي كان جليا في الفصل الأول الذي اشتمل على وقوف على تاريخ هذا النوع الشعري في الشعر الأندلسي وفي عصر بني الأحمر تحديدا، إذ ذكرت في الخطة أغراض شعرية في العصر الأندلسي، وتطرقت للحديث عن المديح النبوي في العصر الأندلسي، ثم أغراض الشعر في عصر بني الأحمر، وآخر الفصل تناولت المديح النبوي في عصر بني الأحمر، أما الفصل الثاني فقد خصصته للدراسة الفنية على إبراز ما يمليه علم البيان وعلم البديع.

لتاتي خاتمة شاملة في الأخير لأهم النتائج المتوصل إليها في هذا البحث،وقد استعان البحث بعدد من المصادر والمراجع لعل أهمها رسالة الماجستير لأيمن الجرار الموسومة بالحركة الشعرية في الأندلس، عصر بني الأحمر وهي الدراسة التي ركزت على شعر عصر بني الأحمر فكانت بذلك قاطرة لبحثي نحو المرور من العام نحو الخاص في معاينته لشعر المديح النبوي الذي جاءت بعض الإشارات إليه في هذه الرسالة، إلى جانب الدواوين الشعرية لكل من (ابن جابر) و(ابن الزمرك) و(ابن الخطيب) دون نسيان كتاب نفح الطيب للمقري، وإلى جانب هذه المصادر مراجع بحثت في الشعر الأندلسي من مثل الأدب العربي في الأندلس لعبد العزيز محمد عيسى، الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب لسان الدين، والأدب العربي في الأندلس لعبد العزيز عتيق

ولعل أكبر صعوبة يمكن الإشارة إليها هي صعوبة الحصول على المراجع، ليس لعدم توفرها فحسب بل لقلتها أيضا؛ فالموضوع من مواضيع الأدب القديم ومراجعه ناهيك عن مصادره من دواوين شعرية أو مؤلفات تراثية مشتملة على أشعار الشعراء تكاد تكون منعدمة لاسيما في الجامعات الفتية.

وختاما أتوجه بالشكر الخالص إلى الأستاذة المحترمة المشرفة على متابعة البحث في كل دقائقه، وعلى ما أمدتني به من توجيهات قيمة، فقد كانت حريصة على توجيه الأفكار وتصويب الأخطاء.

وأخيرا أحمد الله على إتمام هذا البحث المتواضع الذي أمل أن يكون فاتحة لبحوث أخرى قادمة.

قد يبدو من المنهجي قبل تفصيل الحديث عن قصيدة المديح النبوي في شعر بني الأحمر التقديم له بحديث عن مصطلح المديح نفسه، وتتبع لهذا النوع من القول الشعري في عصور ما قبل بني الأحمر؛ بغية الوقوف على خصائصه فيها من أجل معاينة الإضافة التي قدمها شعراء بني الأحمر فيه.

1. مفهوم المديح:

أ. لغة:

جاء في المعاجم العربية في تعريف المديح لغة ما يلي:

في (معجم العين) في شرح مادة (مدح) قوله: "مدح: المدْح: نقيض الهجاء وهو حسن الثناء. والمِدْحة اسم المديح، وجمعه مدائح. ومِدَحٌ، يقال مدحته وامتدحته"[1]؛ أي ذكر محاسنه.

وينقل (القاموس المحيط) عن (العين) التعريف نفسه؛ حيث جاء فيه في شرح مادة (مدح) : "مدحه، كمنَعَهُ، مَدْحًا ومِدْحَةً: أحْسَنَ الثناء عليه. كَمَدَّحَهُ، وامتدحه وتمدَّحَهُ، والمديح والمِدْحَةُ والأمْدُوحة، ما يُمدَحُ به، ج: مدائح وأماديحُ. ومُمَدَّحُ/ كمُحَمَّدٍ: ممدوح جدا، وتَمَدَّحَ: تكلَّف أن يُمدحُ وافتخرَ، وتشبع بما ليس عنده والأرض.والخاصرة: اتسّعتا، كامتدحت وامَّدَحَتْ، كادّكرت. ووهِمَ الجوهري في قوله: امْدَحَّتْ، لغة في اندحَّتْ"[2].

وواضح جدا كون المعجمين قد اتفقا في ذكر المعنى نفسه للفظة (مدح)؛ بمعنى حسن الثناء وذكر محاسن الشخص أو الشيء.

[1]- الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ترتيب وتحقيق عبد الحميد الهنداوي، الجزء الرابع، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمي ة بيروت – لبنان ص 126.

[2]- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آباري، القاموس المحيط. طبعة جديدة كاملة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ص 266.

وجاء في (لسان العرب) لابن منظور) في شرح مادة (مدح) قوله: "المديح نقيض الهجاء وحسن الثناء يقال: مَدَحَتْهُ مِدْحَةً واحدة ومَدَحَهُ يمدَحَهُ مَدْحًا ومِدْحَةً، هذا قول بعضهم، والصحيح أن المدح المصدر والمدحة الاسم، والجمع مِدَحٌ، وهو قياس. ونظيره حديث أحاديثُ"[1]، وهو الشرح الذي يجعل لمعنى لفظة (المدح) في اللغة العربية معنى واحدا متناقلا بين المعاجم التراثية؛ هو كون المدح هو نقيض الهجاء ومدح الممدوح بطريقة حسنة.

ولم يتغير معنى لفظة (مدح) في المعاجم المعاصرة عن ذلك المعنى الذي تناقلته المعاجم التراثية التي تم الوقوف عندها فيما سبق؛ حيث نجد للفظة الدلالة نفسها في المعاجم المعاصرة؛ فقد جاء في (معجم الوسيط): «مَدَحَهُ مَدْحًا. أثنى عليه بما له من الصفات . (مَدَّحَهُ): أكثر مَدْحَهُ، امتدح المكان: اتسع ويقال: امتدحت خاصرة الماشية: اتسعت شِبْعًا وفلانا: مَدَحَهُ (تمادحا) مدح كل منهما الآخر. (تمدَّحَتْ) خاصرة الماشية امتدحت.

وفلان تكلف \ان يُمْدح. ويقال: هو يتَمَدَّحُ إلى الناس: يطلب مدحهم، وقرض نفسه وأثنى عليها وافتخر بما ليس عنده. وفلانا: مدحه (الأمدوحة): ما يمتدح به (ج) أماديح. (المدحة). والأمدوحة (ج) مدح (المديح): الأمدوحة (ج) مَدَائحٌ، المِمَادِحُ المحاسن تذكر في المدح»[2]؛ ففي هذا التعريف للفظة المدح تعني أيضا ذكر صفات الشخص الممدوح والثناء عليه.

وتجمع المعاجم المعاصرة أيضا على ذكر التعريف نقسه للفظة (المدح)؛ فقد جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة تعريف المدح بالنص الآتي: "مدح، يمدح، مدحًا فهو مادح والمفعول ممدوح

–مدح الشخص أو الشيء: أثنى عليه بماله من الصفات الحسنة.

أحسن الثناء عليه، ضد ذمه "مدح سلوك صديقه. (...)

[1]– ابن منظور: لسان العرب، مادة (م.د.ح) ط1، دار صادر بيروت لبنان مج 1977، 6، ص 27.

[2]– إبراهيم مدكور: معجم الوسيط، ج2، ط2، دار الدعوة، إسطنبول تركيا، 1989 ص 857، 858.

أما في المشتقة امتدح فجاء في تعريفها: امتدح يمتدح، امتداحا، فهو ممتدح والمفعول ممتدح.

امتدح الشخص أو الشيء: مدحه، أثنى عليه بما له من الصفات الحسنة

"امتدح طريقة أستاذه في الشرح. امتدح الرئيس أعوانه المخلصين".

تمادح، يتمادح، تمادحا، فهو متمادح، تمادح القوم: مدح بعضهم بعضًا.

-تَمدّح امتدّح إلى يتمدّح، تمدُّحًا، فهو متمدح، والمفعول متمدح إليه

-تمدّح الشخص: تكلف أن يُمدح "كان يكره من يتمدح، مدح نفسه وأثنى عليها، افتخر بما ليس عنده "دع الناس يمدحوك ولا تتمدّح – تمدح بما ليس فيه"

تمدح الشخص إلى الناس: طلب مدحهم "يتمدح إلى الناس وليس أهلاً للمديح"[1]

والمديح هنا هو الثناء على الممدوح وهو ضد الذم، وهناك من يفتخر بنفسه ويمدح بنا ليس عنده من الصفات.

أمدوحة [مفرد]: أماديح: ما يمدح به من الشعر "أنشد رئيسة أمدوحة فاهتز لها طربا، أجاد المتنبي في أماديحه بسيف الدولة"

-ومدّح [مفرد]، مصدر مدَح، ثناء، إطراء الصفات.

-أفعال المدح، (نح) نعم وحبذا وما جرى مجراها

-مدحه [مفرد]، ج مدحات ومِدح: أمدوحة، ما يمدح به من الشعر "لم تنل مدحته إعجاب الممدوح، كان الشعراء ينالون العطايا جزاء مدحهم للخلفاء".

[1]- أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، الطبعة الأولى 1459/ 2008م، دار عالم الكتب ص 2075، 2076.

–مدّاح [مفرد]: صيغة مبالغة من مدح، شخص يتفنن في المديح ويجوده ويبالغ فيه، وغالبا ما يتقاض على ذلك أجرا

"استمعنا إلى المداح في القرية بالمولد النبوي"

مديح [مفرد]: ج مدائح: ما يمدح به من القول، وهو غرض من أغراض الشعر "تخصص في إنشاد المدائح النبوية.

–المتنبي شاعر المديح – أكثر الشعراء قديما من المديح للتكسب "يفرط في المديح: يقدم شخصا بحماس بالغ".[1]

اختلفت أنواع المديح في الشعر من مدح رؤساء الدولة، ومدح خلفاء الدولة، ومدح النبي صلى الله عليه وسلم.

ب. اصطلاحا:

جاء في تعريف مصطلح (المديح) قولهم: "يعتبر المديح فنا من فنون الشعر الغنائي، يعبر فيه صاحبه عن عاطفة الإعجاب والتقدير نحو فرد أو جماعة، فيعدد الأفعال العظيمة ويصف المزايا والشمائل الكريمة.»[2]

فالمديح إذن هو الإعجاب والاحترام وتقدير الأفعال ومدح بحب وإعجاب.

[1]– أحمد مختار عمر: المرجع السابق، ص 2076.

[2]– محي الدين أبو سقرا: مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب العربي ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 25 ص170.

وجاء في تعريفه أيضا: «إضافة إلى أنه فن يقدر الأعمال العظيمة والبطولات الخارقة ويثني على أصحابها ويمجدهم، ويصور مآثرهم تصويرا فنيا مثاليا يجعل البطولات أكثر مما هي عليه في الواقع ويحول العمل الفاضل إلى عمل أكثر فضلا وأعظم أجرا»[1].

وفي اصطلاح المديح نجد كذلك أن المديح عند الأدباء والنقاد غرض شعر جوهره الشكر والثناء، والتنويه، بمناقي الممدوح، وخلع (أبو البقاء الكفوي). على المدح فقال: «المدح هو الثناء باللسان على الجميل مطلقا، سواء أكان من الفواضل، أو من الفضائل وسواء أكان اختياريا أو غير اختياري ولا يكون إلا قيل النعمة، ولهذا لا يقال مدحت الله، إذ لا يتصور تقدم وصف الإنسان على نعمة الله بوجه من الوجوه لأن نفس الوجود نعمة من الله تعالى»[2]؛ فالمديح يعني الشكر والثناء على الممدوح، وذكر نعم الله تعالى. من خلال مدحه لأن الوجود هو نعمة من الله تعالى أنعم بها علينا. و «إذا كان التكلف سمة في مديح التكسب، فذلك رياء وإن كان قليلا، لأن العربي يؤمن بالفضائل والشيم التي نشأ عليها فينظم المديح كرد على صنيع لم يستطع أداء حقه وإعظاما له »[3]؛ فالمديح حسب ما تقدم هو الشعر الذي ينظمه الشعراء في مدح شخص معددين صفاته الخُلُقية والخلقية، وواصفين مآثره وأعماله.

وفي اقتران مصطلح (المديح) بمصطلح (النبوي) في العبارة الاصطلاحية (المديح الديني) يعرف (زكي مبارك) (المديح الديني) بقوله: «فن من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهي لون من(التعبير عن العواطف الدينية وباب من الأدب الرفيع لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص»[4]

[1]- محي الدين أبو سقرا: مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب العربي، ص 155.

[2]- غازي طليمات، عرفان الأشقر، الشعر في العصر الأموي ط1 دار الفكر مكتبة الأسد، دمشق ص 326، 327.

[3]- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح الأستاذ محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ص 62

[4]- زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي ط1 منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ص17

فـ(المديح النبوي) هو المديح الذي يوجه إلى أفضل خلق الله، محمد صلى الله عليه وسلم ويطبعه بالصدق والمحبة والوفاء والإخلاص.

1- المديح النبوي في صدر الإسلام:

تجمع الكتب المؤرخة للمديح الديني على كون (حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي) هو شاعر المديح النبوي الأول، وهو الشاعر الوحيد من بين شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كانت له شهرة واسعة في الجاهلية، فلما قدم الرسول صلى الله عليه ويلم إلى المدينة، أسلم وحسن إسلامه، فاتخذ الرسول شاعره المنافع عن جماعة المسلمين بإزاء شعراء قريشيين ويكفيه فخرا أن الرسول دعا له فقال: «اللهم أيده بروح القدس»[1]

ومن أهم قصائده التي نظم فيه الجزء المتعلق بمديح الرسول صلى الله عليه وسلم وفيه يقول:

وقال الله قد أرسلت عبدًا يقول الحق أن نفع البلاءُ

شهدت به فقوموا صدقوه فقلتم لا نجيب ولا نشاءُ

هجوت مباركا برا حنيفا أمين الله شيمته الوفاء[2]

فالأبيات السابقة في نسبتها إلى (حسان بن ثابت) تبين كونه الشاعر الوحيد من الشعراء الذين مدحوا رسول الله الكريم، وكانت له أبيات كثيرة يدافع عن النبي قلى الله عليه وسلم، وفي هذه الأبيات نجد أن المديح لا يحتل منها إلا مكانا ضئيلا، لكنه ذكر فيها بعض صفات الرسول صلى الله عليه وسلم وشيمه الرفيعة.

[1]- محمود علي مكي: المدائح النبوية. ط 1 مكتبة لبنان دار نويار للطباعة – القاهرة. ص12

[2]- المرجع نفسه، ص 14

ونرى في هذه الأبيات التي هي قيلت في مقام تأبين للرسول صلى الله عليه وسلم كيف ذكر (حسان بن ثابت) فيها فضائل الرسول الكريم، وكيف يبدو فيها متشبعا بالمفاهيم الإسلامية، وكيف يتخلل نسيج هذه الأبيات عبارات من أبيات الذكر الحكيم، ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، صائغا إياه صياغة شعرية جميلة. فهو في وصفه شمائل النبي صلى الله عليه وسلم، يضمن أبياته معنى الآية القرآنية في قوله تعالى: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » سورة التوبة آية 127[1]؛ فقد أغنى الشاعر (حسان بن ثابت) شعره في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، من اقتباساته من القرآن الكريم والأحاديث النبوية، ليعطي صورة إسلامية خالصة في أبياته الشعرية في مدح سيد الكون صلى الله عليه وسلم.

2- المديح النبوي في العهد الأموي:

اصطبغ المديح في العهد الأموي بالصبغة الحزبية السياسية مع تحول العصبية القبلية إلى عصبية حزبية، فلقد نشأت الأحزاب ولكل حزب شعراء انحازوا إليه. كان هناك حزب الأمويين وحزب الشيعة وحزب الخوارج وحزب الزبيريين، انحاز كل شاعر إلى حزب معين يمدحه بأنه الأحق بالخلافة ويهجو معارضيه.[2]

وتشير الكتب المؤرخة لهذه الحقبة الزمنية من الشعر العربي في تشجع الخلفاء الأمويين الشعراء على المدح وأغدقوا عليهم الأموال حتى تهافت الشعراء على الخلفاء والولاة والقادة وبالغوا في صفات الممدوح لدرجة كبيرة.[3]

وهناك أبيات للـ(كميت) يمدح (بني هاشم):[4]

---

[1]- ينظر: حمود علي المكي، المدائح النبوية ص 25

[2]- ينظر: سراج الدين محمد، المديح في الشعر العربي، دط، دار الراتب الجامعية، بيروت لبنان ص 25.

[3]- سراج الدين محمد، المديح في الشعر العربي، ص 25.

[4]- المرجع نفسه، ص26.

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا مني وذو الشيب يلعب

إلى النفر البيض الذين يحبهم إلى الله فيما نابني أتقرب

بني هاشم رهط النبي فإنني بهم ولهم أرض مرارا وأغضب

وقد تأثر المديح في العصر الأموي باختلاف التيارات السياسية وتحولها. وقد تنوعت الأحزاب وكل شاعر انحاز إلى حزب معين، وكان تشجيع الخلفاء للشعراء على الندح بدفعهم الأموال، وزادهم ذلك حماسا على المبالغة في صفات الممدوح إلى حدّ أكبر.

3- المديح في العصر العباسي:

يمضي المديح النبوي في العصر العباسي على نحو ما كان في العصر الأموي، وإن تفاوتت فيه الصور والظروف، ومن أشهر شعراء هذا العصر (مهيار الديلمي) الذي كان له عشرات من القصائد في مدح أهل البيت والرسول صلى الله عليه وسلم، وصفاته الحميدة، وإلى جانبه يذكر (ابن الفارض) و(أبو حفص عمر بن علي). المشهور بسلطان العاشقين، ومن قوله:

أرى كل مدح في النبي مقصرًا وإن بالغ المثني عليه وأكثرا

إذا الله أثنى بالذي وهو أهله عليه فما قدر ما يمدح الورى[1]

فالشعراء في العصر العباسي قد أكثروا في المديح في سيد الكون رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم وأبدعوا في شعرهم من خلال قصائدهم الكثيرة، ومهيار الديلمي من الشعراء العباسيين الذين مدحوا في صفاته الحميدة وأخلاقه الكريمة.

[1]- حسن كامل الملطاوي، رسول الله في القرآن الكريم. دط. دار المعارف القاهرة ص19.

الفصل الأول: المديح النبوي في عصر بني الأحمر.

1 - أغراض الشعر في العصر الأندلسي

2 - المديح النبوي في العصر الأندلسي

3 - الأغراض الشعرية في عصر بني الأحمر

4 - المديح النبوي في عصر بني الأحمر

5 - شعر المديح النبوي في عصر بني الأحمر

لا يختلف اثنان في كون الشعر في الأندلس كانت له مميزاته الخاصة به، وهي مميزات فرضتها الذهنية الأندلسية التي كانت مزيجا بين ثقافة الشرق والغرب، وفرضتها أيضا البيئة الأندلسية بمناخها وطبيعتها فكان الشعر الأندلسي بالرغم من قول بعضهم بتبعيته للشعر المشرقي له من خصوصياته المحلية ما قد يشار إليها في هذا المبحث في محاولة لإبراز هذه الخصوصية المحلية، وهي خطوة اجرائية تبدو ضرورية قبل تخصيص الحديث عن شعر المديح الديني في هذا العصر، ثم في عصر بني الأحمر؛ لمعرفة المؤثرات الثقافية والبيئية والسياسية والاجتماعية التي أطرت هذا الشعر في عمومه، وشعر المديح الديني منه تخصيصا.

1/ أغراض الشعر في العصر الأندلسي:

تمتاز الطبيعة الأندلسية بسحر أراضيها الخلابة والأنهار الجارية، وفيها من المناظر التي فتنت، وتفنن في وصفها الشعراء، وبذلك فقد تطور وازدهر الشعر والأدب في هذا العصر، وأكثر ما يميزه هو ظهور وتعدد الأغراض الشعرية التي نظم فيها الشعراء؛ «لم يترك الأندلسيون بابا من أبواب الشعر المعروفة إلا وعالجوه، فتركوا قصائد في المديح والهجاء والرثاء والفخر والزهر والتصوف والفلسفة وغير ذلك، وكان الكثير من الحكام والأمراء شعراء، فمنهم المتفوق المكثر ومنهم المقل، تتراوح أشعارهم بين الغزل والفخر والشكوى».[1]

1-1 الهجاء

لقد تعددت موضوعات الشعر الأندلسي، وفي مقدمة هذه الأغراض التي يعالجها الشعر الأندلسي الهجاء، فهو معناه الأدبي فن من فنون، يصور عاطفة الغضب والاحتقار أو الاستهزاء.[2] وأصبح الهجاء

[1]- يوسف فرحات ويوسف عيد، معجم الحضارة الأندلسية، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، دت، ص05.

[2]- ينظر: قدامة بين جعفر، نقد الشعر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1989م، ص135.

موضوعا من موضوعات الشعر الأندلسي، وغرضا يعالجه الشعراء، يصور فيها غاضبته وعواطفه عن طريق الهجاء.

ولقد كان في عصر الطوائف شاعران، اشتهرا بالهجاء هما (ابن سارة الشنتريني والسميسر)، وإن جل شعر (ابن سارة الشنتريني) يقع في موضوعات الوصف والمدح والغزل بالغلمان، أما صاحبه (السميسر) فكان كثير الهجاء، كما له أهاج فردية[1] ، منها قوله في (أبي عبد الله بن الحداد):

قالوا ابن حداد فتى شاعر قلت وما شعر ابن حداد

أشعاره مثل فراخ الزنى فتش تجد أخبث أولاد[2]

برز شعراء عصر الطوائف في العصر الأندلسي، وكانوا يتميزون بمجموعة من الأغراض من مدح وغيرها، وبرز شعراء أمثال (السميسر) في الهجاء، وكان من الموضوعات التي تميز بها. وقد تميز الهجاء في الشعر الأندلسي أيضا في هجاء المدن، فقد كان كل واحد منهم ينظم شعر في الهجاء يختلف حسب كل غرض أو هدف يريد الوصول إليه من خلال شعره التي تتجلى في قصائدهم[3].

«وقال الوزير أبو الحسن ابن الغمام الغرناطي يهجو مراكش:

يا حضرة الملك ما أشهاك لي وطنا لولا ضروب بلاء فيك مصبوب

ماء زقاق وجو كله كدر وأكلة من بذنجان ابن معيوب»[4]

[1]- ينظر:أيمن يوسف ابراهيم الجرار، الحركة الشعرية في الأندلس، عصر بني الأحمر، رسالة ماجستير، جامعة النجاح فلسطين، 2007، ص 99

[2]- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، تح: محمد عبد الله عنان، ط1، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1975م، ص221.

[3]- أيمن يوسف ابراهيم الجرار، الحركة الشعرية في الأندلس، عصر بني الأحمر، ص101

[4]- أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ط 1، دار صادر بيروت، 1967م، ص336.

2-1 الوصف

أبدع الأندلسيون في الوصف كثيرا، في العديد من المجالات، وذلك لما تمتاز به الطبيعة الأندلسية بالعديد من الثروات والمفاتن التي تفنن فيها الأندلسيين في الوصف. و «لقد تغنى الأندلسيون في شتى الأوصاف، حتى فاقوا المشارقة في بعضها، كوصف الطبيعة الناعمة، والمدن العامرة».[1]

وكان عبد الرحمن الداخل أول من نظم في هذا الغرض، عندما وصف حنينه للوطن في قوله:

أيها الراكب الميمِّمُ أرضي أقرِ مني بعضَ السلام لبعضي

إن جسمي كما علمتَ بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض

قُدِّرَ البَين بيننا فافترقنا فطوى البينُ عن جفونيَ غُمْضي

وقضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي[2]

امتاز وصف الشعراء الأندلسيين بالتأمل الدقيق وطول البال، أصبحت أوصافهم متميزة، وكان لهم أسلوب جميل وهادئ وطري، أصبحت أوصافهم متميزة، وكان لهم أسلوب جميل وهادئ حتى قيل في وصفهم: «وهم يبدون لنا في أوصافهم، وكأنهم يتأملون ما حولهم في فتور وبطء وإسهاب، وكل هذا في أسلوب رخو بالغ الليونة».[3]

---

[1]- البستاني بطرس، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، حياتهم وآثارهم ونقد آثارهم، دار نظير عبود، بيروت، د ت،، ص 65.

[2]- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، دار الثقافة بيروت، ط 1 ، 1960 ، ص77.

[3]- أنخل جنتاليثا بالنثا، تاريخ الفكر الأندلسي، تر: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دت، ص 44.

كان للطبيعة الأندلسية أثر ومساحة كبيرة، استولت على عقول ومشاعر الشعراء في الإبداع في غرض الوصف. «للطبيعة في نفس الشاعر الرقيق المرهف الحس، الأثر ذكريات في قلبه، وللطبيعة انطباعات في حسه، فهو يذكرها دائما، ويظل يلفت إلى ماضي أوقاته بين أحضانها».[1]

وكان للطبيعة دور في وصف الشاعر، وتميزه في غرض الوصف في الشعر الأندلسي، والتفنن في الوصف. ولقد أثرت الطبيعة الأندلسية بما تمتاز به من سحر وجمال في الشعراء تأثيرا بالغا، حيث "استمدوا خيالاتهم منها، وأضفوا كثيرا من صورها على موضوعات شعرهم».[2]

ومن الوصف في الشعر الأندلسي، وصف ابن زمرك لوصف السفن وحركتها في البحر، مصورا إياها بأنها مركّبة جناحين وتسبق البصر كخيول في سباق ويقول:

أركبته في المنشآت كأنا جهزته في وجهه لمزار

من كل خافقة الشراع مصفق منها الجناح تطير كل مطار

ألقت بأيدي الريح فضل عنانها فتكاد تسبق لمحة الأبصار

مثل الجياد تدافعت وتسابقت من طافح الأمواج في مضمار

لله منها في المجاز سوابح وقفت عليك الفخر وهي جواري[3]

[1]– لؤي صهيود فواز، الطبيعة الاندلسية وأثرها في استثمار اللون الشعري، مجلة كلية التربية الأساسية، ع 73، جامعة ديالي، 2012م، ص245.

[2]–ينظر: عبد الرحمان شيحة، الوطن في الشعر الأندلسي، دراسة فنية، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، 1997م، ص30.

[3]– أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج 5 دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1971 ص164.

3-1 الزهد

كان شعر الزهد من بين أنواع الشعر التي عرفها شعراء الأندلس وفالوا فيه قصائدهم؛ إذ يعتبر الزهد من الأغراض الشعرية المألوفة في الأندلس، ومن الأسباب التي أدت إلى نظم شعر الزهد هي ظروف الحياة بعد التقدم في السن، ومن الشعراء الذين غلب الزهد على دواوينهم (أبو إسحاق الإلبيري). فقد «عرف الشعر الأندلسي غرض الزهد، وكان (ابن أبي الزمنيين)، من رجال القرن الرابع، أحد الذين طرقوا هذا الفن، وكان الشعر الزهدي يتردد على قلة، عند بعض الشعراء على وجه تلقائي غالبا، تقف وراءه خطرات الشعراء، وظروف الحياة بعد التقدم في السن، والملاحظات العابرة لوجوه الحياة المختلفة[1].

وكان القرن الخامس الهجري، وفي ظل دول الطوائف، منطلقا لعدد غير قليل من الشعراء لنظم شعر الزهد، ونجد بعض الشعراء الذين غلب الزهد على دواوينهم أو مجموعاتهم كـ(أبي إسحاق الإلبيري). وعندما نتصفح شعر الزهد في عصري الطوائف والمرابطين فإننا نجد أنفسنا أمام أصناف من الزهّاد في القرن الخامس ، فمنهم من ينظمه نقمة وسخطا على الأوضاع الاجتماعية، كونه مني بخيبة الأمل، وأصحاب هذا النوع من الشعر إنما قالوا في الزهد بدوافع الاستنكار لوضعهم الاجتماعي، فقد كانوا مدفوعين إليه بدافع الإخفاق في حياتهم الاجتماعية أكثر ممّا هو صادر عن قناعة شخصية بوجوب التخلي عن الدنيا ومتاعها[2] . ولعّل من أبرز شعراء هذا الاتجاه (أبو القاسم السميسر) الذي قال عنه (إحسان عباس): "لم يكن امرئا عاملا بمبادئه الزهدية"، وأصبح الزهد مذهبا أدبيا أخلاقيا. [3] فقد أفحش في الهجاء وأسرف على نفسه وعلى الناس في النيل

[1]- ينظر: أيمن يوسف ابراهيم الجرار، الحركة الشعرية في الأندلس، عصر بني الأحمر، ص108

[2]- ينظر: محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي، ط1، دار الفكر، دمشق، ص81.

[3]- ينظر: محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي ، ص81.

من مروءتهم، وسبّ أعراضهم نجده يعمد إلى الزهد متذمرا من الأوضاع المتقلبة، فانتهجه نوع ا من الهروب من هذا الواقع المظلم، يقول:

جُمْلَةُ الدُّنْيَا ذَهَابُ مِثْلَمَا قَالُوا سَرابُ

وَالذِّي مِنْهَا مَشِيدٌ فَخَرَابٌ وَيَبَابُ

وَأَرَى الدَّهْرَ بَخِيلاً أَبَدًا فِيهِ اضْطِرَابُ

سَالِبٌ مَا هُوَ مُعْطٍ فَالّذِي يُعْطِي عَذَابُ

وَلِيَوْمِ الحَشْرِ إِنْعا مٌ سُؤَالٌ وَجَوَابُ

وَصِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ يَوْمَ لاَ يُطْوَى كِتَابُ

فَاتَّقِ اللهَ وَجَنِّبْ كُلَّ مَا فِيهِ حِسَابُ[1]

وظروف القرن الخامس من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية أيضا، سمحت لمثل هذا الاستغراق في شعر الزهد، فقد شحذت هذا النوع من الشعر فوضى الحياة السياسية، وزادت في حب الخلاص لدى الفرد من عوائل الحياة، وشجعته على طلب النجاة لنفسه حين كان يرى الأوضاع الاجتماعية تزداد سوءا، وأصبح الزهد لدى بعض أصحابه مذهبا أدبيا أخلاقيا معا، كما كان عند أبي العتاهية في المشرق[2].

1- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص130.

2- ينظر: أيمن يوسف ابراهيم الجرار، الحركة الشعرية في الأندلس، عصر بني الأحمر، ص 140

4-1 المدح

غرض المدح من الأغراض الشعرية الحاضرة في الشعر الأندلسي، وقد كان كثيرا فيها، كما كان له مكانا في الشعر العربي؛ إذ «يعد غرض المدح أضخم أبواب الشعر العربي، فالمديح في القصيدة العربية هو الوثيقة الباقية الدالة على ما كان في العرب من كرم الشمائل والخصال ».[1] وقد كان ذلك شأنه عند شعراء الأندلس؛ إذ «لم يختلف شعر المديح في الأندلس عنه في المشرق من جهة وفرة دواعيه، وكثرة شعرائه، فقد كانت الدولة الأموية بأمرائها وخلفائها وحكامها ورجالها، مقصدا لشعراء الأندلس، وغير من الأقطار، على أن الشعر القديم الذي صدر عن شعراء المراحل الأولى من التاريخ الأندلسي، في ما وصل إلينا قليل، ولكنه يدل على هذا الذي نذهب إليه من استمرار هذا التيار من الأغراض الشعرية، ووجود الشعراء المجودين».[2]

يقول (ابن حمديس) مادحًا الأمير (أبا الحسن علي بن يحيى):

تُفشي يداك سرائر الأغماد لقطاف هام واختلاء هوادي

إلاّ على غزوٍ يبيد به العِدى لله من غزو له وجهاد

ما صونُ دين محمد من ضَيْمِه إلاّ بسيفك يوم كلِّ جلاد

وطلوع راياتٍ وقود جحافل وقراع أبطال وكرِّ جياد

ويقول (ابن هانئ) مادحًا (إبراهيم بن جعفر):

لا أرى كابن جعفر بن عليّ ملكًا لابسًا جلالة مُلْك

[1]- قاسم القحطاني، ابن فركون الأندلسي، شاعر غرناطة، ط1، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2009م، ص ص 47 -48.

[2]- محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي ، ص61.

مثلُ ماء الغمام يندي شبابًا وهو في حُلّتي تَوَقٍّ ونُسك

يطأ الأرض فالثرى لؤلؤ رط ب وماء الثرى مُجَاجة مسك

وقد اختلفت المعاني والأفكار لدى الشعراء وغيرهم في الشعر المديح، وبرز التخصص والتميز، واختلف المديح حسب كل من الشعراء والكتاب، والقضاة لأنه كل واحد له أفكاره الخاصة به، والتي يتميز بها عن غيره.فـ«مع شغب الحياة الفكرية، وتعقد ما ظهر التخصص في الشعر المدير من ناحية معانيه، حيث لاحظ ابن رشيق هذه الفكرة، وفرق بين المعاني التي يمدح الشاعر بها أو كاتبا، وكذلك المعاني التي يمدح بها قائدا أو قاضيا».[1]

وقد انتقل فن المديح النبوي إلى الأندلس من المشرق، وكثر الشعراء في هذا النوع من الشعر، وفي جميع الأقطار وبرز شعراء مجودين في مجال المديح الأندلسي، وقد كثر الاهتمام بالمديح النبوي، فقد كان "من المعروف أن يتغنى شعراء الأندلس بمدائح الرسول، مثلهم مثل الشعراء في جميع البلدان العربية الإسلامية، حيث أخذت هذه المدائح تتكاثر في الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف، وأصبح يتسع من القرن السادس الهجري، حتى أصبح المديح النبوي غرضا كبيرا من أغراض الشعر الأندلسي».[2]

من ذلك قول الشاعر (فرج بن لب الغرناطي) الذي ظل على حنين مستمر في شعره إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو لا يهنأ له بال حتى يروي شعرا تلك المشاهد التي تبعث على الحنين والشوق، من ذلك قوله:

إذا القلب ثار أثار أذكارا لقلبي فأذكى عله أوارا

أحن اشتياقا لريح سرت وأبدي هياما لبرق أنارا

حنينا وشوقا إلى معلم حوى شرفا خالدا لا يجارى

[1]- محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دط، دار المعارف، القاهرة، 1962م، ص37.

[2]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الأندلس، ج8، دار المعارف، القاهرة، دت، ص370.

به أسكن الله أسمى الورى نبيا كريما وصحبا خيارا[1]

5-1 الغزل

يعتبر شعر الغزل من الأغراض ذات الأهمية الكبيرة، التي انتشرت عند العرب في جميع عصورهم، وهو تعبير عن العاطفة والأحاسيس، والحب الخالد، ويقسم الغزل عند العرب إلى فرعين، غزل مادي حسي وغزل عذري عفيف، وقد أصبحت هذه المشاعر الوجدانية تمثل بها إعجابا عند الشعراء الذين أحبوا من قلوبهم وأفئدتهم، ويكثر هذان النوعان من الحب العذري والمادي في الشعر الأندلسي، وأصبح الشعراء ينظمون في الغزل وبيان مشاعر الحب. ولا نبالغ إن قلنا إن الغزل أهم موضوع شغل شعراء العرب في جميع عصورهم وأقاليمهم، وقد ظلوا يصورون فيه عاطفة الحب الإنساني الخالدة، ويضيفون فيه من الأحاسيس والخواطر ما يملا مجلدات في كل عصر على حدة، والغزل من قديم يتفرع عند العرب فرعين كبيرين: فرعا ماديا حسيا، يصدر فيه الشاعر عن الغريزة النوعية أحيانا، إذ مأربه منه اللذة الحسية، وفرعا ثانيا عذريا عفيفا يتسامى فيه الشاعر عن الحس والمادة إلى النقاء والصفاء والطهر، وكأنه يحب صاحبته لمعاني الحب والوجد في ذاتها، لا شيء حسي وراءها، وهو الفرع الذي نمتلأ به إعجابا عند شعراء العرب، ممن أحبوا واستأثروا الحب بقلوبهم وأفئدتهم. وهذان الفرعان من الحب العذري والحب المادي يكتظ بهما الشعر الأندلسي، ولأولهمها دائما الغلبة والرجحان، ونشعر كأنما أصبح الناس جميعا شعراء ينظمون في الغزل والحب وبيان دقائقه ومشاعره، سواء في ذلك أمراء البيت الأموي وحكامه أو أبناء الشعب عربا وبربرا ومسالمة ومولدين.[2]

[1]- المقري، تفح الطيب، ج5 ، ص 510.

[2]- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الأندلس ، ص 256.

ومن أشهر قصائد الغزل في العصر الأندلسي قصائد الشاعر الأشهر في الأندلس (ابن زيدون) التي مطلعها "أحين علمتَ حظك من ودادي"، يعرفُ الشاعر ابن زيدون بقصائده التي اشتهرت في كتب الأدب ومنها "أضحى التنائي بديلًا من تدانينا" وهي في قصة حبِّه مع (ولادة بنت المستكفي)، منها قوله:

أحِينَ عَلِمْتَ حَظَّكَ من وِدادي وَلَمْ تَجْهَلْ مَحَلَّكَ منْ فُؤادِي

وَقادَنِي الهَوى، فانقَدْتُ طَوْعًا وَمَا مَكنتُ غَيرَكَ مِنْ قِيَادِي

رضيتَ لِيَ السِّقامَ لباسَ جسْمٍ كَحَلْتُ الطَّرْفَ مِنْهُ بِالسُّهَادِ

أجلْ عينَيْكَ في أسطارِ كتبِي تجدْ دمْعي مزَاجًا للمِدادِ

فدَيْتُكَ! إنّني قدْ ذابَ قلبِي مِنَ الشّكْوَى إلى قَلْبٍ جَمَادِ[1]

ومن أشهر القصائد أيضا التي قيلت في الغزل قصيدة للشاعر الكبير (لسان الدين بن الخطيب) وهي من أشهر القصائد في الأدب الأندلسي عموما، وقد كان مطلعها "جادك الغيثُ إذ الغيثُ همى" يستذكر فيها الشاعر زمان الوصل في الأندلس:

جادَكَ الغيْثُ إذا الغيْثُ هَمى يا زَمان الوصْلِ بالأندَلس

لـمْ يكُن وصْلُك إلاّ حُلُما في الكَرَى أو خِلسَةَ المختلس

إذْ يقودُ الدّهْر أشْتات المنَى تنْقل الخَطْو علَى ما يُرْسَمُ

زُفَرًا بيْن فُرادى وثُنَى مثْلَما يدْعو الوفودَ الـموْسِمُ

[1]- المقري، نفح الطيب، ج 5ص301

والحَيا قدْ جلّل الرّوض سَنا فثُغورُ الزّهْر فيهِ تبْسِمُ

ورَوى النّعْمانُ عنْ ماءِ السّما كيْف يرْوي مالِكٌ عنْ أنسِ

فكَساهُ الحُسْن ثوْبًا مُعْلما يزْدَهي منْهُ بأبْهَى ملْبَسِ [1]

6-1 الرثاء

الرثاء من الأغراض التي تعبر عن لغة القلوب والحزن الشديد للراثي، وصرخته وحزنه واستيلاء عليها الحسرة والأسى. والأندلسيون يتصفون بالرقة والعاطفة، وتأثرهم بالمصاب، وحزنه عليهم ما أثاروا شجونهم وأحزانهم، وما شاهدوه من حوادث الدهر، ما أثر في نفوسهم ويحز في قلوبهم، فأصبح شعرا باكيا لهم، عالقا في النفس، ونتبين من خلاله التلهف على المرثي واستشعار الجزع والخوف لفقدانه. والرثاء كذلك لغة القلوب، وحديث العاطفة، وهو آية المحزن وصرخته، وقطعة من قلب المفؤود وكبده المتقطع، وآية ناطقة بفداحة الخطب وهو المصاب، واستولت عليها الحسرة وأضناها الأسى. والأندلسيون أهل عاطفة رقيقة، ووجدان حي، يؤثر فيهم المصاب وتحزنهم النازلة، وهم بعد قوالون مجيدون، وينشدونه كلما جاشت نفوسهم بما يستثير شجونهم وأحزانهم، واستدعى لهيب الزفرات وبالغ الأسى، ورأوا حوادق الدهر تعد على من يصطفون، وتسلب من بين أيديهم من يعدونه للنوازل، ولدفع الكوارث، ومد لهمات الأمور، وذلك كفيل أن يؤثر في نفوسهم ما شاء الله أن يؤثر، ويحز في قلوبهم، وللحزين أن يفرج عن نفسه ويبث حزنه، فأرسلوه شعرا باكيا مقبولا لدى النفس، عالقا بالقلب، تتبين من خلاله التلهف على المرثي وتستشعر الجزع والفجيعة لفقده[2].

ويقول الشاعر الغزال:

[1]- – المقري، نفح الطيب، 5ص 311

[2]- ينظر: عبد العزيز محمد عيسى، الأدب العربي في الأندلس، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ص 133.

أرى أهل اليسار إذا تُوُفُّوا بَنوا تلك المقابر بالصخور

أبوْا إلاّ مُبَاهاة وفخرًا على الفقراء حتى في القبور

إذا أكل الثرى هذا وهذا فما فضل الغنيّ على الفقير[1]

2- المديح النبوي في العصر الأندلسي:

تتفق الكتب المؤرخة في الحديث عن نشأة المديح النبوي في الأندلس، وارتباط المديح بالحروب بين المسلمين والنصارى، ابتداء من عصر الطوائف، واستفحل أكثر في عصر المرابطين وبعده، حيث كثرت تحرشات النصارى ببعض المدن الإسلامية، وسقط العديد من المدن في أيديهم.[2]

لقد عاش الأندلسيون التوتر والاضطراب في جميع أنحاء الأندلس، «الأمر الذي جعل الناس يعيشون حالة اليأس، مما دفع بالشعر إلى البحث عن البديل، والبديل هنا ليس القوة العسكرية التي لم تعد تجدي شيئا أمام قوة الأعداء، فجاء الحنين إلى الديار المقدسة مهبط الوحي وزمن صفاء العقيدة، وكأنهم بحنينهم إلى زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وإعجابهم بشخصيه، ثم الاحتفال بمولده بعد ذلك يتوسلون إليه لحدوث معجزة الانتصار على عدوهم».[3]

اتخذ الشعراء الأندلسيون المديح النبوي وسيلة لنجاة، والتخفيف عنهم بما يصيبهم من أحزان. ويدخل شعر المديح النبوي ضمن الشعر الديني، الذي يجمع الزهد والتصوف، وقد وجدنا أن هذا الفن من المديح النبوي

[1]- المقري، نفح الطيب، ج 5 ص256

[2]- ينظر: محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي – ليبيا، 2001م، ص135.

[3]- المرجع السابق، ص 135.

قد ظهر في الأندلس، من القرن الهجري الثالث، وأورد (المقري) قصيدة (لعبد الملك بن حبيب السلمي)، يمدح فيها الرسول، حيث زار قبره وروضته الشريفة، وتمتع بمشاهدة طيبة، حيث يقول:

خير البرية والنبي المصطفى هادي الورى لطرائق لنجاة[1]

جمع الزهد والتصوف في قصائد المديح النبوي، فقد كانوا يميحون النبي صلى الله عليه وسلم، ويحنون لزيارة قبره.

وتجمع الكتب المتعلقة بتاريخ الأندلس في المديح النبوي، أن المجتمع الأندلسي وإن طغت عليهم مظاهر اللهو؛ «فإن صورة الرسول كانت تتلألأ أمام أعينهم كبارا وصغارا، ولم تكن بينهم حركات الزندقة كظواهر عامة، مثلما وجدت في الشرق، وإن الفلسفة كانت منبوذة لأنها تؤدي إلى مناقشة الوجود الإلهي ».[2]حيث اهتم الأندلسيون بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بكل فئاتها، سواء كانوا صغارا أم كبارا، وكانت صورة الرسول لا تغادر أذهانهم.

وتجمع الكتب الخاصة بتاريخ الأندلس أيضا على أنه فيما يخص «قصائد المديح النبوي بوضوح أكثر واستقلالية في النصف الأول من القرن السادس للهجرة، وللشاعر أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي (ت521هـ)، قصيدة يخاطب فيها مكة المكرمة، ويذكر بيت الله الحرام ومبعث رسوله، وأصبح موضوع الخطايا ومخاطبة الحجيج وإرسال التحايا والسلام من أركان هذه القصائد،ن ويعد ابن حزم الاندلسي (ت 456هـ) من الشعراء الأوائل الذين مهدوا لقصائد النبوي والإشارة بسنته واستعمال عبارة صلى في الشعر ».[3]؛ فقد توسعت قصائد المديح النبوي بوضوح كبير في النصف الأول من القرن السادس للهجرة، وأصبح موضوع الشعراء في تلك

[1]- محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي ، ص136.

[2]- عمر إبراهيم توفيق، الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس موضوعاته وفنونه، ط 1، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، 2012م، ص245.

[3]- المرجع السابق، ص245.

الفترة مخاطبة الحجيج، وإرسال التحايا، ويعد (ابن حزم) من الشعراء الأوائل الذين اهتموا في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولم ينتشر المديح النبوي في الأندلس انتشارا واسعا، إلا في عصر الموحدين، فقد اكتملت صورة قصيدة المديح النبوية الأندلس التي تألفت من عنصرين:

1-المطلع الذي درست بعض نماذجه.

2-معاني المديح النبوي التي يصل إليها الشاعر بعد وصف رحلته عبر الفيافي والقفار، وما يصاحبها من متاعب ومشاق، وتصوير الأشواق والهيام في الشوق لزيارة ضريح خير الآنام، والتمرغ بترابه الطاهر، والتعبق بمسكه وشذاه، واستهلال الدموع طلبا للمغفرة، والشفاعة، ثم يختم القصيدة بالسلام على خاتم المرسلين.[1]

ففي كتاب الذيل والتكملة، حجازيات عديدة للشاعر (علي بن محمد بن حسن الأنصاري الإشبيلي)(ت663) يتحدث في إحداها عن مقام الرسول، حيث يقول:

يا حداة العيس رفقا إنها شكت الجهد وبعد المرتمي

طاويات لم يدع منها السرى ودخيل الشوق إلا الأعظما.»[2]

نستنتج من ذلك مدى شوق شعراء المديح النبوي في الأندلس عن حديثهم عن مقام الرسول صلى الله عليه وسلم وفخامته.

[1]- ينظر: ابن خاتمة، الديوان، تح: محمد رضوان الداية، دار الحكمة، 1978م، ص19.

[2]- المراكشي عبد الملك، الذيل والتكملة، تح: محمد بن شريفة وإحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ص 294.

ويشهد للأندلسيين السبق في قول قصائد متضمنة إرسال التحايا إلى نجد وثرى الرسول ومخاطبة الحجيج المتضمن إرسال التحايا إلى نجد وثرى الرسول ومخاطبة الحجيج قبل الصرصري من العراق والبوصيري من مصر، كما في قول الشاعر أبي الحسن علي بن جودي (530هـ)،:

سل الركب عن نجد فإن تحية لساكن نجد قد تحملها الركب»[1]

ويعد (أبو العباس بن العريف) (ت 536هـ) أول من قال الشعر الذي بسمات صوفية شفافة مع مزج بين أسلوب العالم واشراقة الواصل ورموز أهل الطريق، وربط كل ذلك بمدح الرسول الأعظم، ونقل المقري أشعارا نبوية له، يذكر أنه نقلها من كتابه المفقود "مطالع الأنوار ومنابع الأسرار"، ومن قوله:

وحقك يا محمد إن قلبي يحبك قربة الإلـه

جرت أمواه حبك في فؤادي فهام القلب في طيب المياه»[2]

كما هو واضح في البيتين السابقين فقد وضع رموزا دينية في الأبيات الشعرية المتعلقة بالمديح النبوي، ومزج الصوفية فيها، وربط تلك السمات الصوفية بمدح سيد الكون، رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[1]- الفتح خاقان، مطمع الأنفس ومسرح التأنس، ط2، دار الغصون، بيروت، 1989م، ص359.

[2]- المقري ، نفح ، ج 5، ص497.

وللشاعر (أبي العباس بن العريف) قصيدة يفتتح أبياتها والبالغة واحدا وثلاثون بيتا، بصلاة الله على الرسول، وهو نمط تكرر في القصائد النبوية في القرنين السابع والثامن الهجريين، ومما قاله:

صلى الإله على النبي الهادي ما لاذت الأرواح بالأجساد

صلى عليه الله ما اسود الدجى وكسا محيا الأفق برد جداد»[1]

نظمت العديد من الأشعار الخاصة بالمديح النبوي، في الكثير من المناسبات الدينية، وخصوصا في ليلة ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم. [2]. «وفي الأندلس والمغرب نظموا الشعر في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنشدوا المدائح النبوية في المناسبات، وفي أيام المولد النبوي خاصة».[3]

ومن الأسباب التي أدت إلى ظهور وانتشار المديح النبوي أدت الظروف السائدة في الأندلس، إلى التفاتة الشعراء والأدباء إلى قصائد المديح النبوي، وذكر الديار وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وأدى بعد المسافة وصعوبة التنقل على تحفيزهم على نظم مثل هذه القصائد المتميزة بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فقد كانت "ظروف الأندلس الجهادية المتواصلة تلفت الشعراء والأدباء إلى الديار المقدسة، وإلى المقام النبوي، وإلى سيرته وخصائصه وشمائله، استعداد للصبر والثبات والشجاعة، وطلب لعون الله تعالى، يضاف إلى ذلك بعد المسافة بين الأندلسيين وبين الديار المقدسة، وصعوبة السفر وقلة الاستطاعة، وهكذا كثرت الدواعي التي حفزتهم على نظم الشعر في هذا المقصد».[4]

---

[1]- المقري التلمساني، نفح الطيب ، ج5 ، ص497.

[2]- المصدر نفسه، ص101.

[3]- محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي ص100.

[4]- المرجع السابق، ص101.

3-الأغراض الشعرية في عصر بني الأحمر:

قبل تخصيص الحديث في شعر المديح النبوي في عصر بني الأحمر قد يبدو من المنهجي الحديث عن أغراض الشعر التي كانت سائدة في هذا العصر من أجل معرفة المكانة التي حظي بها هذا النوع الشعري عندهم ضمن الأنواع الشعرية الأخرى، والمتتبع لهذه الأنواع الشعرية في عصر بني الأحمر يجدها لا تختلف عن تلك التي ظهرت في الشعر الأندلسي ولعل المسجل عليها هو ظهور أنواع ذات خصوصية مرتبطة بالأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية كما سيتم تفصيله فيما سيأتي.

3-1الوصف:

اهتم الأندلسيون بالوصف في جميع المجالات، واهتمامهم الكبير في وصف الطبيعة وغيرها، وكذلك وصف العمارة. فقد «أظهر الأندلسيون عبقرية نادرة في الشعر الوصفي، ونستطيع أن نقول: إن اهتمامهم به كان كبيرا، وعلى الرغم من امتزاجه في أكثر من الأغراض الشعرية، فقد استطاعوا أن يمنحوه بعض الاستقلال».[1] ويعتبر الشعر الوصفي من أكثر الأغراض الشعرية التي برزت عصر بني الأحمر، وتفننوا في الوصف بأفكار متميزة. حتى فاقوا المشارقة في بعضها، كوصف الطبيعة الناعمة، والمدن العامرة، فكل شاعر منهم متصل بالطبيعة، وهو مشغوف بعماره بلاده، وكان لهم يد في وصف الوحوش الضارية، والخيل والإبل، وبرعوا في وصف مجالس اللهو والغناء، والرقص والشراب وآلته، ووصفوا الصيد وأدواته والسلاح والسفن. [2]، يقول (أبو الح جاج يوسف بن سعيد بن حسان) واصفا مدينة (غرناطة) :

سقى االله من غرناطة كلَّ منهلٍ بمنهل سُحُبٍ ماؤهُنَّ هريق

[1]- الركابي جودت، في الأدب الأندلسي، ط2، دار المعارف، 1966م، ص120.

[2]- بطرس البستاني، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، حياتهم وآثارهم ونقد آثارهم ، ص 65.

دِيارٌ يدورُ الحسنُ بين خيامِها وأرضٌ لها قلب الشجيّ مشوق

وما شاقني إلا نضارةُ منظرٍ وبهجةُ وادٍ للعيون تروق[1]

ووصف (ابن زمرك) دار الملك للأمير (أبي عبد الله)، بأنها أجمل ما ابتدعتهُ يد إنسان، حتى أنَّ النّجوم لشدة جمالها تمنت أن تنزل إليها، يقول :

والله مبتاك الجمل فإنّه يفوقُ على حكمِ السعود المبانيا

فكم فيه للأبصارِ من متنزّه تجد به نفسُ الحليمِ الأمانيا

وتهوى النجومُ الزُّهرُ لو ثبتتْ به ولم تك في أفق السماءِ جواريا[2]

2-3 الرثاء:

والأندلسيون ومثلهم شعراء بني الأحمر لا يختلفون في مراثيهم عن المشارقة في رثاء الميت، والتفجع عليه، بيد أنهم تفوقوا في رثاء المماليك البائدة، لما في نفوسهم من محبة صادقة لهذا الوطن، فكان يشجوهم أن يروا بلادهم تسقط بلد إثر بلد في أيدي الغرباء، ويعتبر رثاء المدن من المراثي السياسية [3]. وإذا نظرنا إلى هذا الموضوع باعتبار ان المرثي هو الأساس في هذا النوع من الشعر، فإننا نجد نواع جديدا من الرثاء، قد ظهر في الأندلس، وازدهر في عصر بني الأحمر، وهو رثاء المدن، فالحبيب الذي فقد هنا هو الوطن، وهذا جاء بسبب تفرق المسلمين وضياع كلمتهم، وتراجع بداياته مند سقوط مدينة طليطلة، وهي أول مدينة يستعيدها النصارى

[1]- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1، ص51

2- ابن الزمرك، الديوان، ص140

[3]- ينظر: الطوير يوسف، مدخل إلى الأدب الأندلسي، ط1، بيروت، دار الفكر، 1991م، ص206.

سنة 478هجري.[1] تغير إذن نوع الرثاء في الأندلس، خاصة في عصر بنو الأحمر، فأصبح رثاء المدن نوعا جديدا لدى الشعراء في هذه الفترة. واختلف بذلك الأندلسيون في الرثاء عن المشارقة في رثاء الميت، حيث كثر عندهم رثاء المماليك، لمحبتهم الصادقة للوطن؛ فـ «بعد سقوط الكثير من المدن الأندلسية في أيدي الأسبان، وبدأت شمسها بالأفول ليحل محلها رثاء المدن، الذي فاضت عبقرية ناظميه، فأبدعوا أروع المراثي وأصدقها وقعا في النفوس».[2]

وجاءت ثورة هذا الشعر يوم سقوط إشبيلية بيد الإسبان في العام 646هـ، حيث دَّبت موجةٌ من الغضب في صدور معظم الشعراء، ورافقهم في هذا شعورهم بفقدان الأمل بقدرة الحكام على الصمود واسترجاع المدن الضائعة، وبدا هذا واضحا عند (أبي البقاء الرندي) واصفاما حل بديار الإسلام، بعد تبدل الكفر بالإيمان، وتحويل المساجد إلى كنائس، حيث يقول :

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لِفراقِ الإلف هَيْمان

على ديار الإســلام خاليةٍ قد أقفرت ولها بالكفرِ عُمْران

حيثُ المساجدُ قد صارت كنائس ما فيهنّ إلا نواقيسٌ وصُلبان[3]

وقد حاول الشعراء التركيز في مراثيهم على العاطفة الدينية عند عامة الشعب لأنها تجمع المسلمين باختلاف عروقهم من عرب وبربر وغيرهم ، فاستنهضوا بها الهمم في نفوسهم، فجاءت الصورة مكررة في أشعارهم وهي صورة تحويل المساجد إلى كنائس وما ينجر عليها من وضع الأجراس في المآذن ، إلى جانب

[1]- ينظر: بسبح أحمد، لسان الدين بن الخطيب عصره بيئته حياته آثاره، ط 1 ، دار الكتب العلمية، بيروت، ص17.

[2]- الطويل يوسف، مدخل إلى الأدب الأندلسي، ص67.

[3]- المقري، نفح الطيب، ج5 ، ص374،

إظهار الحقد الذي أبداه الإسبان نحو المسلمين في البلاد التي سيطروا عليها حيث لم يترددوا في إدخال الخمر والخنزير إلى المساجد، وهي الصورة التي ينقلها (عمر بن المرابط) قائلا:

كم جامعٍ فيها أُعيدَ كنيسةً فاهْلَك عليه أسى فلا تتجلَّد

القِسُّ والناقوسُ فوق منارةٍ والخَمر والخِنزيرُ وَسْطَ المسجد[1]

3-3 الهجاء:

لم ينتشر هذا اللون من الشعر كثيرا في عصر بني الأحمر، وذلك لعدم وجود دوافع قوية تساعده على ذلك، فظل محدودا بين بعض الشعراء، وكان للظروف السياسية آنذاك الأثر البالغ في هذا الفن، ذلك أن معظم الشعراء توجهوا نحو مجاراه تلك الظروف التي رافقها تتابع سقوط المدن، وتنامي قوة الأسبان وما رافقة من تراجع للقوة العربية المسلمة، وعموما فالهجاء أصبح ضعيفا منذ بداية العصر العباسي، وسبب هذا أن التنازع أصبح فكريا مصيريا بعد أن كان شعوبيا بين العرب والموالي.[2]

ولعل الشعور بقرب الأجل، هو الذي دفع الشعراء للابتعاد عن هذا الفن، وهذا ما يفسر تطور بعض الفنون الأخرى، ولكننا لا نعدم أن نجد أشعارا تدل على وجود الهجاء بين شعرائهم، فالطبائع الإنسانية لا يمكن أن تتوافق بشكل كامل، والخلافات بين البشر لا تنتهي، وكل فرد يحاول جاهدا أن يثبت ما يؤمن به أمام الآخر[3].

[1]- المقري: نفح الطيب، ص 374.

[2]- ينظر: حاوي إليا، فن الهجاء وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، 1988م، ص439.

[3]- ينظر: أيمن يوسف الجرار، الحركة الشعرية في الأندلس، عصر بني الأحمر، ص 99

«وإذا ما نظرنا إلى الهجاء بأقسامه المختلفة، نجد أنه لم يظهر عندهم ما يعرف بالهجاء القبلي، الذي يتوجه به الشاعر إلى قبيلة معادية لقبيلته، فلم يكن للقبيلة دور في مملكة غرناطة، ونظامها السياسي، على نحو ما كان سائدا في عصر بني أمية ».[1]ويرجع ذلك لأسباب عدة نذكر منها أن ملوك بني الأحمر حكموا البلاد بدافع ديني، ومن سمات هذا العصر كونه احتوى على كثير من النكبات التي أدت إلى ضياع كثير من المدن.

وظهر الهجاء السياسي بأثر قليل في هذا العصر، ويتناول الخصوم السياسيين، ومنه ما جاء عند (ابن الخطيب) أثناء محنة (الغني بالله) التي حدثت بسبب استيلاء أخيه (اسماعيل) على الحكم، وهروبه إلى المغرب طالبا العون استرداداً للمُلْكِ السَّليبِ. يقول:

لم يَدْرِ إسماعيلُ ما طوَّقتَه مِن مِنَّةٍ لو كانَ ممَّن يعقِلُ

نِعَمٌ مُهَنَّأَةٌ وظلٌ سَجْسَجٌ تَنْدى غضارَتُهُ وماءٌ سَلْسَلُ

أغراه شيطانُ الغرورِ لغايةٍ من دونها تنضى المطيُّ الذُّلَّلُ

والغدرُ شرُّ سجّيةٍ مذمومةٍ شَهِدَ الحكيمُ بذاك والمتَمَلِّل[2]

وهذه كما واضح في هذه الأبيات فإن (ابن الخطيب) يصف فيها (إسماعيل) بالغرور، وعدم ح فظ المعروف الذي أسداه إياه (الغني بالله)، ويرى أنَّ الغدر عادة سيئة تجرُّ الويلات إلى صاحبها، فديار الغادرين لا يمكن أن تدوم لهم كما قال.

[1]- التميمي قحطان، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، بيروت، دار المسيرة، ص103.

[2]- ابن الخطيب، الديوان، ص497.

4-3 المدح:

اعتمد الشعراء الأندلسيون ومثلهم شعراء بني الأحمر على نفس الأسلوب الذي اتبعه المشارقة في غرض المدح؛ حيث «اتبع شعراء الأندلس في مدائحهم المشارقة، فحافظوا على الأسلوب القديم، وعملوا بالاستسهال وحسن التخلص، وأحكام البناء، والتزموا الغزل في محاريب مدائحهم، وربما جعلوا صدورها وصفا للخمرة أو للطبيعة، وإذا شد بعضهم عن هذا السبيل، فالسبيل بالمدح من غير توطئة عابوا عليه ذلك».[1]

ومعظم المدائح الأندلسية في هذا العصر كانت موجهة إلى الأمراء والملوك، وهي من حيث المضمون لها جانبان: جانب يريك الصفات التي يجعلها الشعراء في ممدوحيهم، وهي لا تخرج عادةً عن الصفات التقليدية التي تصف بها العرب من وفاء وشجاعة ومروءة وكرم. من ذلك قول (أبي الحسن علي بن الجياب) مادحا أحد الملوك:

إنْ تلقَهُ في يوم بَذْلِ هباتِهِ تَلْقَى الغمائمَ أرسلتْ هطَّالها

الواهبُ الآلافِ قبل سؤالِها فكفى العُفَاةَ سؤالها ومطالها

إنْ قلتَ بحرٌ كفُّه قصَّرْتَ إذ شبَّهتّ بالملح الأَجاجِ نوالها

وسقى البرّية فيضُ كفيه فقد عمَّ البلاد سهولَها وجبالَها[2]

أمّا الجانب الآخر فيدور حول انتصارات الممدوحين التي تعد نصرا للإسلام والمسلمين، ويدخل في ذلك أحيانا وصف جيوشهم ومعاركهم الحربية ، ومنهما جاء في شعر (علي بن أحمد الخشني) في مدحه لملوك (بني الأحمر)، فيقول :

[1]- بطرس البستاني، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، حياتهم وآثارهم ونقد آثارهم ، ص 40.

[2]- المقري، نفح الطيب، ج 6، ص362

أنتم بني نصر نصرتُم ملّة الإسلام أضفت على إسرائه زلزالها

أحرزتم وقت السقيفةِ عودَها دون الأنام وقودَها وسكالها

بدرٌ وما بدرٌ وردَّم قلبها وبجنادل الطاغوت تملأُ حالها[1]

3-5الغزل:

كانت البيئة الجميلة في الأندلس تغري بالحب، ما جعل الشعراء يتغنون في الغزل، تبعا لعواطفهم، ومن شعر الغزل الذي أثر في نفوسهم شعر التغزل بالمرأة، وتصوير أحاسيسهم اتجاهها، وظل الغزل كما هو ولم يتغير بالنسبة للأندلسيين، وبقي مقلدا للمشرق، بالرغم من الطبيعة الجديدة في الأندلس؛ فقد «كان كل شيء في بيئة الأندلس وبني الأحمر الجميلة، يغري بالحب ويدعو إلى الغزل، ومن ثم لم يكن أمام القلوب الشاعرة إلا أن تنقاد لعواطفها، فأحبت وتغزلت، ثم خلفت وراءها فيضا من شعر الغزل الرائع الجميل، وأوضح سمات هذا الشعر تتجلى في رقته وعذوبته الناشئة من التفنن في وصف محاسن من يقع في عيون الشعراء من النساء الجميلات، وفي تصوير مشاعرهم المتضاربة تجاههن، وكان المتوقع أن ينفعل الشاعر الأندلسي بالمؤثرات البيئية الجديدة، فيبدل من نظرته إلى المرأة، ومن مفهومه للقيم الجمال فيها، ولكن هذا لم يحدث، وظل الغزل الأندلسي مقلدا للمشرق».[2]

وقد حافظ الشعراء على الصور التقليدية التي تدور بين المحبين حافظ الشعراء على الصور التقليدية التي تدور بين المحبين « التي تتراوح بين القسوة واللين، والوصل والهجران، والشكوى والعتاب، والدموع والبكاء».[3]وأبقى الشعراء على المظاهر نفسها التي كانت موجودة في القديم، في مواضيع الهجران والحب والشوق

[1]- المقري، نفح الطيب، ج9 ، ص42

[2]- عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط3، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م، ص169.

[3]- البستاني بطرس، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، حياتهم وآثارهم ونقد آثارهم ، ص 70.

ولكنهم زادوا عليها من المظاهر ما كان خاصا على ثقافة الغرب؛ فقد ظهر عندهم من الغزل الفاحش والتغزل بالغلمان ما كان في جرأته مشكلا لنموذج متفرد؛ من ذلك قول محمد بن محمد بن نصر:

واعدَني وعداً وقد أخلفا أقل شيء في المليح الوفا

وحال عن عهدي ولم يرعه ما ضرَّهُ لو أنه أنصفا[1]

وقد تكررت عند الشعراء صور ومعانٍ تدور حول محاسن المرأة، ومن ذلك وصفهم للعيون التي تدل على جمال صارخ، وشبهوها بعيون الظباء -كما هي عند شعراء المشرق- وهي تلقي بسهام نظراتها فتصيب كل من ينظر إليها؛ يقول (محمد بن محمد بن عبد الله بن مقاتل):

أيا لبني الرِّفاء تنضي ظبائهم جفون ظباهم والفؤاد كليم

لقد قطَّع الأحشاء منهم مهفهفٌ له التِّبر خدٌّ واللجيْن أديم

يسدِّد إذ يرمي قسيَّ حواجبٍ وأسهمها من مقلتيه تسوم[2]

6-3 الخمريات:

لقد ازدهرت الكثير من الأغراض الشعرية في عصر بني الأحمر، وخصوصا فن الخمريات، الذي برز من جديد في هذا العصر، واشتهر الكثير من الشعراء في الشعر الخمري، ومن أشهرهم ابن الأزرق الغرناطي لقد ازدهرت الكثير من الأغراض الشعرية في عصر بني الأحمر، وخصوصا فن الخمريات، الذي برز من جديد في هذا العصر، واشتهر الكثير من الشعراء في الشعر الخمري، ومن أشهرهم ابن الأزرق الغرناطي ؛ فقد فاضت عبقرية ناظمي هذا اللون من القول الشعري؛ ففي «عصر غرناطة الذي اتسم بالرخاء والازدهار الثقافي، بدأ هذا

[1]- أيمن الجرار، الحركة الشعرية في الأندلس، ص.114

[2]- المصدر السابق، ص.116

الفن يستعيد عافيته، وساعد على ذلك النهوض بالغناء الذي ذاع وفشا حتى في دكاكين الحاضرة غرناطة، وعرفت الأندلس في أيام السلطان أبي الحجاج يوسف وابنه الغني بالله، طائفة من أئمة الشعر الخمري، أمثال: ابن الجياب، ابن خميس، وابن خاتمة الأنصاري، وابن الخطيب وابن زمرك، وغيرهم، وفي أواخر هذا العهد، وبالتحديد في أواخر القرن الثامن، لم يسطع في سماء الشعر الخمري سوى ابن الأزرق الغرناطي».[1]

لقد تحدثت موضوعات شعر الخمرة حول عصرها، ووصف لونها وطعمها وصفاتها وبريقها، وطيب فعلها في النفوس ورقتها، وقدمها وسكبها، ووصفوا آنيتها من كؤوس وأباريق وجرار، والمجالس وما يدور فيها من نديم وساق ومغنى، والتغني بشربها في أحضان الطبيعة الفاتنة، والدعوات إلى استدامة السكر والحث على المجاهرة ومبادرة اللذات، والشرب مع المسيحيين وقصص المغامرات التي تجري في الحانات والأديرة، وبذلك يكون أهل الأندلس غير مقصرين في خمرياتهم، فيصورون مجتمعهم على مر عصوره، طارقين بدلك أغراض الشعر الخمري.[2]

وفيما يتعلق بمجالس الخمر، فقد كانت تمثل مجتمع الأندلس خير تمثيل، فهي مرآة صادقة تعكس حياة الناس وطريقة عَيْشِهم، وكان الشعراء يصفونها بدقة وافتنان، فتبدو القيان وهي تغني، والغلمان وهي تدير الكؤوس على الشاربين. وكل هذا يجري في طبيعة حباها الله كل أسباب الجمال. وقد وصفوا الآلات التي كانت تعزف الألحان أثناء شربهم، وكأنهم يعيشون احتفالا لا ينقطع. وأكثر خمرياتهم كانت تجري في جوف الليل حيث يسود الهدوء، وتصفو النفس، وهو ما صرح به (ابن الخطيب) في وصفه لمجالس الأنس يقول:

أدرها بين مزمتـلٍ وعودِ ودونكَ فاغتنم زمنَ السعودِ

وجُنْحُ الليل مطويُّ النَّواحي وضوءُ الفجرِ منشورُ البنودِ

[1]- يوسف الطويل، مدخل إلى الأدب الأندلسي، ص67.

[2]- ينظر، بطرس البستاني، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، ص74.

وإن قام الغمام بها خطيب ترى الإبريق يسرع في السجود[1]

3-7 شعر الحنين:

ارتبط شعر الحنين عند الأندلسيين بالغربة، فأدى ذلك إلى كتابة أشعار تتعلق بالشوق والحنين إلى الوطن، ومدى تعلق الإنسان إلى أحبابه وأوطانه. وقد «توسع الأندلسيون وبنو الأحمر في شعر الحنين، فمعظمهم ممن رحلوا من الأندلس، وما أكثرهم كانوا ذوي الأقلام الشاعرة. وليس كالاغتراب شيء يزيد من حنين الإنسان إلى وطنه وتعلقه به، وهذا ما حدث لهؤلاء الأندلسيين، سواء أكان اغترابهم بالانتقال من الغرب إلى الشرق، أم بالانتقال لسبب أو لآخر من مدينة إلى مدينة بالأندلس، فكانوا كلما اشتدت عليهم وطأة الاغتراب ونالت من نفوسهم، فزعوا إلى الشعر يبثون توقهم وحنينهم المشوب إلى أوطانهم وأحبابهم».[2]

وظهر اليأس كثيرا في أشعارهم، وهذا ما نلمحه واضحا عند (القاضي أبي البركات البلفيقي)؛ حيث يقول:

قالوا: تغربت عن أهل وعن وطن فقلت: لم يبقى لي أهل ولا وطن

مضى الأحبة والأهلون كلهم وليس لي بعهم سكنى ولا سكن

أفرغت دمعي وحزني بعدهم فأنا من بعد ذلك لا دمع ولا حزن»[3]

فاليأس باد في أبياته، ونراه يلجأ إلى الألفاظ التي تدل على فقد الأمل (تغربت، لم يبقى، أفرغت دمعي)، وكذلك فقد كرر حرف النفي (لا) ليؤكد يأسه من العودة إلى وطنه، فالذي يربطه به لم يعد موجودا.

[1]- أيمن الجرار، الحركة الشعرية في الأندلس، ص 122

[2]- عبد العزيز عتيق، الأدب في الأندلس، دار الآفاق العربية، القاهرة، ص 273.

[3]- النباهي أبو الحسن، تاريخ قضاة الأندلس، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ص ص 205 -40- 41.

3-8 الشعر الديني:

ونقصد بالشعر الديني هنا شعر الزهد والتصوف، وهما مرتبطان بعضهما بعضا؛ وقد «ازدهر التصوف في هذه الفترة، وكان من بين أقطابه في ذلك الوقت أبو الحسن علب بن فرحون القرشي، المتوفي سنة 751هـ، وأبو إسحاق إبراهيم بن يحي الأنصاري، المولود سنة 649هن وله كتاب (بغية المسالك في أشرف الممالك في مراتب الصوفية».[1] وظهر التصوف في الشعر الديني عند مجموعة من الشعراء، وألفوا كتبا في شعر التصوف. و«من الزهد نشأ التصوف، فساد في عصر السيطرة، نتيجة للظروف القاسية التي كان يعيشها بعض الناس، وبدافع الإيمان بالله، فالزاهد ينصرف عن الملذات طمعا في الآخرة، أما الصوفي فإن همه هو وقته الحاضر، وهدفه هو معرفة الله والاتصال الدائم به».[2] والزهد هو البعد عن الفساد والانصراف عن الملذات من اجل أن يكسب الآخرة. و«في مملكة غرناطة ذاتها، كان التصوف منتشر بين الخاصة والعامة، وفيها الكثير من الفرق الصوفية، وكان لهذه الفرق هدفان أساسيان هما، الإيثار والجهاد».[3]

انتشر التصوف في عصر بني الأحمر، بين الخاصة والعامة في الشعر الديني؛ فمن الزهد نشأ التصوف، فساد في عصر السيطرة المغربية نتيجة للظروف القاسية التي كان يعيشها بعض الناس، وبدافع الإيمان بالله، فالزاهد ينصرف عن الملذات طمعا في الآخرة، أما الصوفي، فإ ن همَّه هو وقته الحاضر، وهدفه هو معرفة الله والاتصال الدائم به[4].

---

[1]- عنان محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط 3، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ص467.

[2]- يوسف الطويل، مدخل إلى الأدب الأندلسي، ص128.

[3]- الحمصي أحمد الحمصي أحمد، أبن زمرك الغرناطي سيرته وأدبه، ط1، بيروت، 1985م، ص168.

[4]- أيمن الجرار، الحركة الشعرية في الأندلس، ص138

وتركزت أكثر أشعار المتصوفين على ذم الحياة الدنيا، لأنها دار فناء لا دار بقاء، ولا يتمسك بها إلا الجاهل الذي يبحث عن اللَّذة الآنية التي لا تدوم، يقول (أَبو جعفر أَحمد بن صفوان) في ذمِّها :

حديث الأمان في الحياة شجونٌ إن أرضاك شأنٌ احفَظَتْكَ شؤون

يميل إِليها جاهلٌ بغرورها فمِنهُ اشتياقٌ نحوها وأنينُ

تجافَ عن الدنيا ودِنْ باطِّراحها فمركبها بالمِطْمعين حَرُون[1]

4-المديح النبوي في عصر بني الأحمر

إن الحديث عن شعر المديح الديني في عصر بني الأحمر يكشف عن علاقة وطيدة بين البيئة والظروف المحيطة بها بعدها سببا رئيسا يوجه الشعر نحو موضوعات بعينها؛ فلا يختلف اثنان في كون الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية مادة خاما يستقي منها الشاعر مواضيعه في محاولة منه للتعبير عن مشاعره ومواقفه اتجاه واقعه المعيش؛ وبالبحث عن هذه الظروف بغية مغرفة ما كان منها محيطا بظهور شعر المديح النبوي في زمن بني الأحمر نجد:

4-1 الجانب السياسي:

للحديث عن الشعر في عن عصر بني الأحمر، أو عن هذه الدولة التي نشأت في بلاد الأندلس، قد يبدو من المنهجي التفصيل في الجانب السياسي، بما له من علاقة وتأثير في الشعر ومواضيعه، وبالحديث عنه في دولة بني الأحمر تجمع الكتب على أن هذه المملكة قد برزت وسط ظروف سياسية صعبة، وظهر هذا واضحا

[1]- المصدر السابق، ص140

من خلال الهزائم المتتابعة التي لحقت بالمسلمين، مما أدى إلى ضياع العديد من المدن والحصون، وهذا ما دفع المسلمين إلى الهجرة إلى هذه المملكة التي كانت بعبيدة عن متناول جيوش الأسبان.

ويعود الفضل في إنشاء هذه المملكة، إلى مؤسسها (محمد بن يوسف بن خميس بن نصر)، الملقب بابن الأحمر، فقد استطاع بذكائه أن يعمل على تثبيت سلطانه، وحماية نفسه ضد الأخطار التي كانت تحيط به، فقد واجه الفتن الداخلية من خلال سياسته مع أبي الحسن بن اشقيلولة، فقد عينه واليا على (وادي آش) وبعد وفاته قام بإحضار ولديه ونقل إليهما الوصاية على هذا الإقليم، لكي يحافظ على أركان دولته من النزاعات الداخلية.[1]

وفي مقابل هذا فقد لجأ إلى الاستعانة (ببني مرين) في عدوة المغرب، والاستنصار بهم في مواجهة الخطر الخارجي المتمثل في الجيش الأسباني، فتظاهر لأول أمره بطاعة الملوك بالعدوة وإفريقية، يخطب لهم زمانا يسيرا وتوصل بسبب ذلك على إمداد منهم وإعانة.[2]

ولعل (ابن الخطيب) في كلامه هذا يشير إلى سياسة اتبعها ملوك بني الأحمر، تتمثل في عدم الاعتماد على إخوانهم في عدوة المغرب،، فقد لجأ ملوكهم إلى مهادنة الأسبان؛ وهذا ما فعله ابن الأحمر؛ فقد فاوض الأسبان، وحاول استعادة تغر (طريف) من بني مرين، فعسكر بقواته في (مالقة)، وقدم العون للنصارى من خلال إمدادهم بالمؤونة والجند، ولكن وعود ملوك قشتالة له لم تتحقق، فعاد يخطب ود بني مرين مرة أخرى، وأوفد ابن عمه الرئيس (أبا سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف) ووزيره (أبا سلطان) على رأس وفد كبراء الأندلس

[1]- ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 7، ت: تركي فرحان المصطفى، ط 1،، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1999، ص207.

[2]- ينظر: لسان الدين بن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، ج 2، ت: يوسف علي الطويل، ط 1،، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ص52.

إلى السلطان (أبي يعقوب) في طلب المودة، وتجديد العهد، وتقرير المعذرة في شأن طريف، فأبرموا العقد وأحكموا الصلح، وكانت سياساتهم تسير وفق الظروف السياسية المتغيرة والمحيطة بهم، فهم يدركون أن ممتلكاتهم صغيرة وضعيفة، فهي تعيش وسط قوات ثلاث وهي: قشتالة، أراغون، والمغرب، ونحن لا ننظر إلى سياساتهم على أنها نوع من التخلي عن الأندلس وأهلها، فهم بفضل هذه السياسة استطاعوا أن يحافظو ا على وجود العرب المسلمين، وتأخير نهايتهم لما يقرب من قرنين ونصف من الزمان.[1]

وكان نظام الحكم عندهم وراثيا، وكانوا يحكمون رعيتهم حكما مطلقا، معتمدين على أحقيتهم بحماية المسلمين، فهم من سلالة أنصار النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فكان السلطان يمسك بمقاليد الحكم بنفسه، ولا يترك لأحد غيره أن يدير شؤون البلاد، والثابت أن جميع حكامهم كانوا من سلالة بنيي الأحمر، ووصل عددهم إلى اثنين وعشرين ملكا.[2]

2-4- البيئة الاجتماعية:

كان للحياة السياسية في مملكة غرناطة أكبر أثر في الحياة الاجتماعية هناك، فقد كانت هذه المملكة على صغر رقعتها ملجأ كل الأندلسيين المغلوبين على أمرهم، وكانت موطنهم الجديد بعد أن سقطت مدنهم بيد الأسبان؛ لذلك فقد شملت مملكة غرناطة أو بني الأحمر عناصر بشرية متعددة، ومع ذلك ظل المجتمع فيها محصور على العربي واليهودي والبربري وأهل البلاد[3].

[1]- ينظر: ابن خلدون عبد الرحمان، تاريخ ابن خلدون ، ص 211.

[2]- ينظر: لسان الدين بن الخطيب ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، تح: محمد مسعود جبران، ط 1، دار المدار الاسلامي، بيروت،، لبنان، 2009م، ص ص 122-123.

[3]- ينظر: لسان الدين بن الخطيب ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، ص ص 63- 64.

أما المجتمع الغرناطي فكان مجتمعا طبقيا فيه الأحرار والعبيد، فيه الخاصة وهم التجار وكبار الملاكين الذين يشكلون الطبقة الأكبر نفوذا ومكانة، وفيه العامة وهم الأجراء والفلاحون الذين تميزوا بالبساطة، والذين يشكلون الطبقة الأخيرة في المملكة، وعلى الرغم من هذا الاختلاف الطبقي إلا أن العصر الذي وجدت فيه مملكة غرناطة كان يتسم بالاستقرار والولاء للسلطة النصرية في عهد القوة والازدهار، وحين ضعفت المملكة حصلت انقسامات اجتماعية بين السكان أدت إلى سقوط غرناطة في النهاية.[1]

وقد أشاد ابن الخطيب بالمجتمع الغرناطي، وبأخلاق أهله وديانتهم، وحسن طاعتهم للأمراء، حيث وصفهم ووصف نسائهم بالجمال، والرشاقة ونبل الأخلاق، وغير مبالغتهن في التبرج والزينة، أما لباس أهل غرناطة فكان بلائم كل فصل، فكانوا يلبسون الكتان والقطن والأردية الإفريقية، والمقاطع التونسية، أما مذهبهم في الدين العقائد فهو مذهب الإمام مالك (ت179) إمام دار الهجرة.[2]

4-3- الجانب الثقافي:

شهد عهد ببني الأحمر، كما تشير إلى ذلك كتب التاريخ، نشاطا فكريا حديثا في مجال العلوم والمعارف، كما شهد حركة أدبية واسعة، ملأت الحقل الثقافي بنتاج فكري متنوع، سواء على مستوى القول فيما يتصل بالشعر والنثر، أو على مستوى الحركة، أو على مستوى النشاط العملي واليدوي منه خاصة، وقد تمظهر ذلك في الجانب المادي المعماري وغيره، أو في استمرار العقيدة الدينية، التي تثبت في وجه الأعداء من الأعاجم في المنطقة بفك الحصار، وكان كدليل على تحصيل الثقافة، هو ثبات اللغة في وجه الغزو على مدى سنين طوال.[3]

4-4 الشعر في عصر بني الأحمر:

---

[1]- ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

[2]- ينظر: نفسه، ص64.

[3]- ينظر: عبد العزيز محمد عيسى، الأدب العربي في الأندلس، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ص25.

ازدهرت الحضارة الاندلسية في مجالات متعددة كالعمارة والزخارف البديعية، وكان قصر الحمراء من أهم الشواهد على ذلك في هذا الشأن، وكانت الحركة الفكرية آنذاك محصورة في النواحي الأدبية،، فقد ازدهر الأدب والشعر، وحفلت غرناطة بجمهرة من أكابر الأدباء والشعراء، وكان حظ العلوم العقلية قد أصابه الركود، فقلما نجد في هذه الفترة أحد من أقطاب الطب أو العلوم الرياضية والفلسفية وغيرها من العلوم العقلية، التي ازدهرت من قبل في الأندلس، هذا وقد احتفظت الآداب في مملكة غرناطة بروائها وازدهارها حتى اللحظة الأخيرة من تاريخها.[1]

ويرجع الفضل في ازدهار الحركة الأدبية، إلى تشجيع ملوك بني الأحمر للشعراء الذين كانو يقربونهم؛ وذلك لأن الحكام أنفسهم يميلون إلى الأدب والفنون شأنهم في ذلك شأن سائر ملوك الطوائف، إذ كان بعضهم يفرض الشعر، مثل: (محمد الثاني) (ت 701هـ) و(محمد الثالث) (ت 708هـ)، و(يوسف الأول) الذي ظهر في عهده طائفة من الشعراء والأدباء أمثال: ابن الجياب وابن الخطيب، وابن زمرك، وأبو الحسن النباهي، وكان السلطان يوسف الملقب بأبي الحجاج، قد أنشأ مدرسة عرفت باسم المدرسة العلمية أو المدرسة النصرية، وكانت من مفاخر غرناطة، حيث درست فيها مختلف أنواع العلوم، وكان يقصدها الطلاب والمدرسون من المغرب.[2]

أثرت الصراعات السياسية الداخلية والخارجية في نتاجات غالبية شعراء غرناطة، وظهر هذا في بدايات دولة بني الأحمر، وظلت هذه الظروف تنبه الشعراء لأهمية مناصرة الحكام في خوض هذه الصراعات، ولهذا كانت أشعار ابن الخطيب هي سبيله الوحيد لاحتلال أعلى مكانة عند الأمير، واشتهر بأشعاره وأسلوبه الممتاز في

[1]-ينظر: محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط 4، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1997م، ص461.

[2]- ينظر: عمر إبراهيم توفيق، الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس، ط 1، دار غيداء، عمان، الأردن، 2012م، ص223.

كتابة رسائل الدولة لحكام البلاد الأخرى، وقد قدم لسيده ملك غرناطة أكبر الخدمات برسالتيه اللتين بعث بهما إلى سلطان مراكش، واستدر بهما عطف السلطان ودموع رجال بلاطه.[1]

وكان الشعراء في هذه الفترة يرافقون الجيوش في الحملات العسكرية، ويشاركون أحيانا في الدفاع عن غرناطة وثغورها ضد الهجمات الأسبانية.[2]

وقد تنوعت أغراض الشعر في هذا العصر تبعا لتطورات الواقع السياسي والاجتماعي، فشاع شعر رثاء المدن، ووصف المعارك، وكثر شعر الأعياد والمناسبات والمدائح النبوية، وكثر أيضا شعر الاستنجاد، وغلب طابع الاستغاثة واستنهاض همم ملوك المغرب وتونس للمؤازرة في الدفاع عن مجد العرب المهدد بالضياع في الأندلس، فيستجاب لصريخ هذا الشعر حينا، وتصم الآذان عنه أحيانا.

ومن الفنون الشعرية التي استحدثها الأندلسون من قبل، ثم بلغت كمال نضجها في عصر بني الأحمر فن الموشحات والأزجال.[3]

ومما تجدر الإشارة إليه، هو أن الشعر لم يبق داخل القصور والأندية الخاصة ليسلي ويطرب ممثلي الطبقة الراقية، وإنما تخطى الجدران والحواجز ليصل إلى العامة، وينتشر في الطبقات الاجتماعية عامة، فلم يكن من الضروري أن يتمتع الإنسان بثقافة واسعة، ليستحسن الشعر ويتذوقه، ويرجع ذلك إلى الإنتشار الهائل للموسيقى التي لعبت دورا مهما في جعل الشعر متداولا بين الناس، يتغن به الجميع، ومما يؤكد ذلك هو أن ابن الخطيب قد لاحظ بنفسه أن الشعر كان يسمع حتى في دكاكين غرناطة.[4]

---

[1]- ينظر: لسان الدين بن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ت: أحمد مختار العبادي، دار الكتاب العربي، ص 343.

[2]- ينظر: صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، ط1، دار الميسرة، عمان، الأردن، 2007م، ص50.

[3]- ينظر: عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دط، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دت، ص 129.

[4]- ينظر: حمدان حجاجي، حياة وآثار ابن زمرك (شاعر الحمراء)، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1989م، ص19.

مما تقدم يمكننا القول أنه وعلى الرغم من عمق المأساة والمعاناة من الفتن الداخلية والحروب الخارجية، استطاع الغرناطيون أو بنو الأحمر أن يحققوا معادلة الحضارة الإنسانية شكلا ومضمونا، وما تزال آثار هذه الحضارة الشامخة واضحة وعميقة في الفكر الإنساني، للخصت تجاربها الدولة النصرية، فرفعت لواءها عاليا لتقدمها للإنسانية كنزا ثمينا[1].

5- شعر المديح النبوي في عهد بني الأحمر

لقد بلغت الحركة الشعرية خلال عهد بني الأحمر أوج ازدهارها، حيث لقي الشعراء مكانة لدى مجتمعاتهم، فهذه المملكة عرفت دورها العظيم والجلي في رعاية العلماء والأدباء، فتركوا العديد من المؤلفات التي تثبت جهودهم في مجال الشعر و «الحركة الفكرية بالأندلس في النصف الأول من القرن السابع الهجري، كانت تحاول أن تعمل على وصل ماضيها بحاضرها رغم الاضطرابات والفتن، وبنهوض مملكة غرناطة أخذت الحركة الفكرية بالاستقرار، وتعمت المملكة بالهدوء والطمأنينة».[2]

كانت الحركة الشعرية في عهد بني الأحمر في أوج ازدهارها، وبرز ذلك في اهتمامها بالعلماء والأدباء، وعم الهدوء والطمأنينة في مملكة غرناطة بعد العديد من الاضطرابات، ومن أهم الشعراء الذين برزوا في هذه الحقبة من تاريخ الأندلس نجد ابن الخطيب «يعد ابن الخطيب شاعرا وأديبا كبيرا، يكتب الشعر في موضوعات متنوعة تتناسب مع حياته المليئة بالأحداث والمحن، حيث تميز شعره بالتنوع في المدائح النبوية، ومدح السلاطين والزجل والموشحات، فهمن المعروف أن ابن الخطيب كان قطبي الشعر والنثر في عصره، وبذلك ترك تراثا فكريا كبيرا في النثر والشعر والتاريخ».[3] يعتبر (ابن الخطيب) من الشعراء الكبار ومن المهتمين بالمواضيع التي تتناسب

[1]- ينظر: أيمن الجرار، الحركة الشعرية في الأندلس، ص 150

[2]- محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ص 310-311.

[3]- عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، دت، ص ص 310- 311.

مع الحياة المليئة بالأحداث، وتميز شعره بالمدائح النبوية ومدح السلاطين والزجل، وكان تراثه مختصا بالنثر والشعر. وإلى جانب ابن الخطيب، نجد أيضا (ابن الزمرك)، وهو من مشاهير رجال السياسة في مملكة بني الأحمر، ولقد ترك مجموعة قصائد في المدح والوصف والغزل، فكان بارع في الموشحات، كما له أيضا أبياتا شعرية منقوشة على جدران قصر الحمراء؛ فشعره يمتاز بالرقة وطول النفس، وإن (ابن زمرك) يتفوق على أستاذه (لسان الدين) في بعض النواحي الشعرية، لكنه يقصر عنه في عمق التفكير وغزارة الإنتاج وتنوع الموضوعات. ويختلف (ابن زمرك) عن أستاذه (لسان الدين بن الخطيب) في ببعض النواحي التي تختص بالشعر، ويعتبر من أشهر شعراء بني الأحمر، خاصة في المدح ومنها المديح النبوي[1].

وإلى جانب فن المدح في عهد بني الأحمر برز أيضا فن المديح النبوي؛ فقد « انتشرت المدائح النبوية، وساعد على ذلك طبيعة نظام الحكم الذي ساد مملكة بني الأحمر، فالحرص الذي أبداه هؤلاء في المحافظة على المظاهر الدينية بوصفهم حماة لهذا الدين، جعلهم يحرصون على إحيائها في أكثر من سياسة دينية (...)».[2]

وقد حرص الملوك على الطابع الديني في عصر بني الأحمر، خاصة في المديح النبوي، وحرصوا على إحياء ذكراه، والمحافظة على العقيدة الدينية لهذا الدين الاسلامي [3]. لقد انتشرت المدائح النبوية في عصر بني الأحمر، وكثرت الأشعار لدى الشعراء ففي هذا العصر، وأنشأوا قصائد كثيرة في المديح النبوي والإشادة بخصال الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخلاقه الحميدة والحديث عن الشوق إليه، والحديث عن الديار المقدسة؛ فقد «انتشرت المدائح النبوية، وساعد على ذلك طبيعة نظام الحكم الذي ساد مملكة بني الأحمر، فالحرص الذي أبداه هؤلاء في المحافظة على المظاهر الدينية بوصفهم حماة لهذا الدين، جعلهم يحرصون على إحيائها في أكثر من مناسبة دينية،

[1]- ينظر: عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، المرجع نفسه، ص 311.

[2]- أحمد الحمصي، أبن زمرك الغرناطي سيرته وأدبه، ص132.

[3]- ينظر: أيمن يوسف إبراهيم الجرار، الحركة الشعرية في الأندلس (عصر بني الأحمر)، ص 109

وكان يحتفل بهذه الذكرى ليلة الثاني عشر من ربيع الأول من كل عام، فيجلس الملوك كالغني بالله في صدر الإيوان ويتجمع حولهم علية القوم والشعراء الذين نظموا قصائدهم المولدية لإلقائها في البلاط ».[1] ومنهم من أظهر أثر الرسول صلى الله عليه وسلم في هداية الناس وإخراجهم من عبادة الأوثان إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، فهو نور ستضاء به الأكوان، يقول (ابن خاتمة الأنصاري):

حمى حمى الحق إرغاما لمبطله فالشرك في مأتم والدين في عرسي

نور لمقتبس، جرز لمحترس يمت لمنتكس، نعمن لمبتئس[2]

وقد حرص الملوك على الطابع الديني في عصر بني الأحمر، خاصة في المديح النبوي، وحرصوا على إحياء ذكراه، والمحافظة على العقيدة الدينية لهذا الدين الاسلامي [3]. لقد انتشرت المدائح النبوية في عصر بني الأحمر، وكثرت الأشعار لدى الشعراء فيي هذا العصر، وأنشأوا قصائد كثيرة في المديح النبوي والإشادة بخصال الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخلاقه الحميدة والحديث عن الشوق إليه، والحديث عن الديار المقدسة.

وأظهر الشعراء في قصائدهم كثيراً من المعاني التي تدل على صدق العاطفة نحو الرسول. ولسان حالهم يقول: إنَّهم عاجزون عن الإتيان بكلام يليق بمقام رسول االله العظيم، فمن من البشر يستطيع أن يلمَّ بصفاته . يقول الخطيب (محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي):

أروم امتداح المصطفى فيصدُّني قصوري عن إدراكِ تلكَ المناقبِ

ومن لي بحصِر البحرِ والبحرُ زاخرٌ ومن لي بإحصاء الحصى والكواكب

[1]- الحمصي أحمد، مرجع سابق، ص132.

[2]- ابن خاتمة، أحمد بن علي الديوان، ت: محمد رضوان الداية، ط 1، دار الفكر، دمشق، 1994م، ص34.

[3]- ينظر: أيمن يوسف إبراهيم الجرار، الحركة الشعرية في الأندلس (عصر بني الأحمر)، ص 109

ولو أن أعضائي غدت ألسناً إذاً لما بلغتْ في المدح بعضَ مآربي[1]

وذهب بعضهم إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ببيان المصاعب التي واجهته في بداية دعوته، يقول (ابن الخطيب):

يا خيرَ من خلُصتْ الله نيَّتهُ في الملكِ أو خَطَبَ العلياءَ خاطبهُ

صبَّرتَ نفساً لعقبي الصَّبر حامدةً والصّبرُ منذ كان محمودٌ عواقبهُ

ثم الصلاة على خير البريّة ما سادت إليه بمشتاقٍ ركائبُه[2]

ومنهم من أظهر أثر الرسول صلى الله عليه وسلم في هداية الناس وإخراجهم من عبادة الأوثان إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، يقول (ابن خاتمة) :

حَمَى حِمى الحقِّ إرغاماً لمبطلهِ فالشِّرك في مأتمٍ والدّينُ في عرسِ

نورٌ لمقتبسٍ ، جرزٌ لمحتبسٍ يُمنٌ لمنتكسٍ ، نُعمى لمبتئس[3]

واختلط المديح بغيره من الأغراض ،فلم يبدأ شاعر به دون أن يصدره بغرض آخر كالنسيب أو وصف الطبيعة، وكأنها سُنَّة استنها الشعراء في مدائحهم، وممَّن صدّروا قصائدهم بالنسيب (محمد بن سعيد بن جزي الكلبي) في مدحه للأمير (يوسف بن إسماعيل)؛ حيث يقول:

خرجنَ ولم يتقينَ القصاصا وأوثقنَ ثم منعن الخلاصا

[1]- أيمن يوسف إبراهيم الجرار، الحركة الشعرية في الأندلس، ص 109

[2]- المصدر السابق، ص110

[3]- المصدر نفسه، ص ن.

أخذنَ على أنفسٍ العاشقين مضايق لم تلفُ عنها مناصا

لقد جمعَ االله في يوسفَ مكارم لم يخسَ منها انتقاصا

كريمٌ يعدُّ شراء الثّناء بما ملكت يداه ارتخاصا

كانت هذه نماذج من المديح النبوي في عصر بني الأحمر على أنه سيفصل في الفصل القادم في النماذج الشعرية في دراسة فنية تكشف عن جماليات اللغة والأسلوب والموسيقى في شعر المديح النبوي.

الفصل الثاني: دراسة فنية.

1 - اللغة والأسلوب

2 - الصورة الشعرية

3 - البديع

4 - موسيقى الشعر

جرى في عرف الدراسة الفنية أن نتجه في معالجة قضايا اللغة والأسلوب، وما يشتمل عليه من آليات ووسائل التعبير الفني، وهي المقاربة التي سيتم من خلالها قراءة نماذج من المديح النبوي في عصر بني الأحمر في هذا الفصل من البحث، بغية الوقوف على جماليات التوظيف فيهما.

1-اللغة والأسلوب

لم يكن المديح النبوي ظاهرة مستحدثة في العصر الأندلسي، وعلى وجه التحديد في عهد بني الأحمر كما أسلفنا الذكر والتفصيل في الفصل السابق، كما لم يكن ظاهرة غريبة في البيئة العربية الإسلامية آنذاك، بل كان له امتداد لصدر الإسلام خلال الإشراقة النبوية، وفي أثناء الدعوة مع الشاعر (حسان بن ثابت) رضي الله عنه.

واستمر الحال كذلك في زمن بني الأحمر؛ فكلما سادت الظروف والمناسبات التي تستدعي الحضور وممارسة هذا الغرض، وبخاصة في سد الفراغ الذي كان ينجم عن ما يشيره المجون والفساد في ذلك العصر كأمر حتمي للصراع بين الحق والباطل كان هذا النوع من القصائد يظهر ويذيع بين الشعراء، غير أنه أدى ببعض الشعراء الذي كانت لهم عقيدة راسخة وإيمان قوي إلى الزهد والورع، ومنه العزلة أحيانا ليعيشوا في أحضان المنهج الرباني، وفي صفوة من التذكر والحنين إلى ماضي النبوة، واستشعار معية وصحبة النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك في إطار المد السياسي والحراك الديني المتواصل مع المماليك في المشرق العربي، منطلق شد الرحال إلى المغرب ثم الأندلس.

ولما كانت الظروف تتشابه والمسافات تتباعد والإحساس بالغربة يزداد، انطلقت قرائح الشعراء فراحوا يعبرون بصدق عن معاناتهم، علهم يسترجعون بعض الذاكرة الجماعية بلسان الحال التائق إلى عودة الماضي السعيد الصفي النقي، بعيدا عن ما يعايشونه من آثار الفساد، لذلك فقد تميزت أشعارهم بطابع الأندلس

انعكاسا لبيئة المعيشة والمناخ السياسي السائد في علاقاتهم بغيرهم من العجم في مرحلة لا هي من صدر الإسلام في عزه ولا هي من عصر الانحطاط.

في هذه الفترة يظهر ثلاثة فحول من الشعراء، وهم (لسان الدين بن الخطيب) و(ابن جابر الاندلسي) و(ابن الزمرك)، اهتزت مشاعرهم وتاقت نفوسهم للقاء النبي صلى الله عليه وسلم، فجادت قريحتهم الشعرية، بقصائد ترجمت شخصياتهم الزائدة ووفائهم للمنهج النبوي، فعبروا وأتقنوا الأداء وأحسنوا التأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم، بمدحهم واستعجالهم للقائه، فكانت عواطفهم صادقة وأحاسيسهم للماضي معايشة وللحاضر مفارقة.

لقد ركز الجانب التطبيقي من هذا البحث على أشعار هؤلاء الشعراء الثلاثة في المديح النبوي، كما سيأتي لاحقا.

1-1-اللغة:

يعبر عنها (ابن جني) حيث يقول: «اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم».[1]

وهذه الأصوات في شكلها المنطوق، سواء من خلال الخطاب الشعري في حالة إنتاجه، أو في قراءاته بعد كتابته، وإعادة بناءه، تحمل ألفاظها شحنات عاطفية وانفعالية وفكرية، تترجم الحالة النفسية للشاعر في علاقته للبيئة الاجتماعية والثقافية والسياسية، وترتقي عند الشعراء، خاصة إلى مرحلة التمايز تجعلها تتبوأ مكانه تبتعد عن اللغة العامية، الأمر الذي يجعلها تحقق أدبية الأدب وشعريته، وتنفرد بالمعجم الذي يتناسب في المرحلة المعيشية بزمانها ومكانها، وهذا ما نحاول مقاربته في ضوء هذه الدراسة الفنية، في مجالها المديح النبوي.

[1]- أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط 3، المصرية العام للكتاب، ج1، ص24.

إن عنوان المذكرة يوحي ببحث في المعجم اللغوي والدلالي المستعمل في الأبيات، ذلك أن مقام النبوة وجلالها في صلتها بالرسالة، تستدعي تعابير وكلمات رفيعة القدر والمستوى، مشتقة من المعجم الديني في أغلبها، لان المقام مقام قربة وتودد ورجاء وشفاعة.

كان لا بد من القول الحسن إلى الحبيب المصطفى النبي الأكرم الذي امرنا الله بتعزيره وتوقيره، قال سبحانه وتعالى: **{وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ}** سورة الفتح آية(9).

تنوعت الألفاظ المستعملة في أشعار المديح النبوي، لما له من علاقة بالحقل الدلالي العام الذي يدور في فلكه مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كانت صفاته في توظيفها في أشعار الشعراء، تتراوح بين تشبيه له بالأفلاك والأقمار وجميل المخلوقات، وهو ما جعل الألفاظ تتفرع إلى مجموعات متماثلة، شكلت فسيفساء من المعاجم المرتبطة دلاليا بالمديح، كان منها:

– المعجم الديني:

يتجلى بوضوح في الأبيات الشعرية، وبخاصة أن المقام المديح، ففي البيت في قول (ابن جابر):

هاذي البرية من بعد الضلال ومن له على الرسل تخصيص وتفضيل[1]

تتجلى الألفاظ المستوحاة من التنزيل والتي منها (هاديي)، (الضلالة)، مع أن الهداية في مقام التوفيق من اختصاص الله سبحانه وتعالى، فإن النبي صلى الله عليه وسلم هادي، الدلالة لمن يتقي ويهتدي.

وفي الأبيات التالية عند (ابن جابر) أيضا قوله:

نبي صدق جميع الرسل قد شهدت به فمبعثه في الكتب منقول

[1]– يوسف بن إسماعيل النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، المطبعة الأدبية، بيروت 1320، ص94.

ولم تزل منزلات الكتب مخبرة عن صدقه بتيع التوراة إنجيل[1]

في هذه الأبيات نلاحظ الألفاظ ذكر الكتب السماوية، التوراة والإنجيل، وكلمة نبي فكلها ألفاظ من تعابير القرآن الكريم، والآيات التي تدل عليها هي:

فكلمة نبي وردت في العديد من الآيات، منها قوله تعالى: **{**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} الأنفال آية (64).

كلمة توراة وردت في قوله تعالى: **{وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌوَمُصَدِّقًا لِمَابَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِين}** المائدة الآية (46).

أما كلمة الكتب فقد وردت في قوله تعالى: **{ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْمِنَ الْقَانِتِينَ}**. التحريم الآية (12).

في قول (ابن جابر) في الأبيات الآتية:

بدا يوم يدر وهو كالبدر حوله كواكب في أفق المواكب تنجلي

وجبريل في جند الملائكة دونه فلم تغن أعداء العدو المخدل[2]

[1]- يوسف بن إسماعيل النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ، ص95.

[2]- ابن جابر، ديوان محمد بن أحمد بن علي، ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو العين في مدح سيد الكونين، تح: فوزي الهيب، ط1، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، 2005م، ص449.

في قول (لسان الدين بن الخطيب):

ملكت رسول الله في رقي فمن يبرح وأوليتني الحظ الرغيب ومن يشرح[1]

نجد الكلمات جبريل عليه السلام والملائكة والأنام، ذلك أن جبريل هو أمين الوحي والملائكة، في غزوة بدر، كانوا مردفين تعزيز صفوف التوحيد، وإنجاز الوعد بالنصر، وفي الأبيات الأخرى نجد كلمة رسول الله، وكذلك كلمة بدر هي تعبير قرآني، وشاهد قول الله تعالى:

{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } آل عمران الآية (123).

وكلمتا جبريل والملائكة واردة في قول الله تعالى: **{فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ}** التحريم الآية (4).

وكلمة كواكب نجدها في قول الله تعالى: **{إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ}** الصافات الآية (6).

وقد يكون هذا ميزة للشعر الأندلسي لبني الأحمر خاصة، الرأي الذي يصدقه القول «كانوا يختارون أحسن الألفاظ وقعا على السمع وأدعاها إلى تصوير الجمال وإيقاظ النفوس وإثارة العواطف مما يناسب الموضوعات التي كانوا يذكرونها في شعرهم».[2]

الملاحظ أن شعر (ابن جابر) في المديح النبوي لا يختلف ملمحه عن ملمح الشعر الاندلسي العام، إلا فيما هو خصص في المقام النبوي، وفيما عدا ذلك فإنه سهل الإدراك والفهم من قبل أهل الاختصاص، والقراء النموذجيين، إذ انه يصدر عن عاطفة صادقة بمحظ التلقائية في سلاسة وعذوبة، مع أنها تبدو صعبة، على أن معانيها بسيطة سهلة الإدراك لدى القارئ النموذجي.

[1]- لسان الدين بن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، ت: محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1973م، ص379.

[2]- ابن الأثير، المثل السائر في الأدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، مصر، ط 1، ج1، 1939م، ص168.

في قول ابن جابر في البيتين:

بدا يوم بدر وهو كالبدر حوله كواكب في أفق المواكب تنجلي

وجبريل في جند الملائكة دونه فلن تغن أعداء العدو المخذل[1]

يتجلي في هذه الأبيات المعجم الحربي في مثل: جند، العدو، إلى جانب معجم الفلك في مثل: الكواكب، البدر، وهما المعجمان اللذين استدعتهما طبيعة المدح كما أسلفنا في الفصل السابق، فقد تراوح المدح كما قلنا بين ذكر لصفات الممدوح فكانت ألفاظ الكوكب والبدر من الألفاظ التي يشبه بها الممدوح في الحسن، وتراوح بين ذكر لشجاعة الممدوح ولما كان العصر عصر حروب فذكر شجاعة الممدوح في معراك الحرب مدعاة لاستحضار ألفاظ الحرب بما يمثلها المعجم الحربي المشار إليه أعلاه.

عن هذا التنوع في الألفاظ الذي جمع بين فضاء السماء وسطح الأرض، ما يوجد في الأولى من ملائكة وعلى الثانية من آنام، وما جند من معركة من وسائل، فكأن الأفعال التي أنجزت بحركاتها ومستوياتها مختلفة، كانت تدل على الفصل بين الشك والتوحيد، وحتى إبليس اللعين كان عونا للمشركين لإبطال الحق، والله يريد إحقاق الحق، قال سبحانه وتعالى: **{لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}**. الأنفال الآية (8).

والأمر ذاته في استعمال مماثل للألفاظ والصفات في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم يمكن الوقوف عليه في هذه الأبيات من المديح لـ (ابن الزمرك) الذي يقول:

خير البرية مجتباها ذخرها ظل الإله الوارف الأفياء

تاج الرسالة ختمها وقوامها وعمادها السامي على النظراء

[1]- ابن جابر، الديوان، ص449.

لولاه للأفلاك ما لاحت بها شهب تنير دياجي الظلماء

ذو المعجزات الغر والآي الألى أكبرن عن عد وعن إحصاء

قد بشر الرسل الكرام ببعثه وتقدم الكهان بالأنباء

أسمى بها الإسلام يشرق نوره والكفر أصبح فاحم الأرجاء

هو آية الله التي أنوارها تجلو ظلام الشك أي جلاء

والشمس لا تخفى مزية فضلها إلا عن ذي المقلة العمياء

يا مصطفى والكون لم تعلق به من أبعد أيدي الخلق والإنشاء

يا منظر الحق الجلي ومطلع الـ نور النبي الساطع الأضواء

يا ملجأ الخلق المشفع فيهم يا رحمة الأموات والأحياء

يا آسي المرتضى ومنتجع الرضى ومواسي الأيتام والضعفاء [1]

فواضح في هذه الأبيات الشعرية كيف أن المعجم اللغوي لم يخرج بتاتا عن المفردات والألفاظ التي كانت مستعملة في مدح الرسول منذ أن ظهر هذا النوع الشعري؛ فهي ألفاظ من المعجم القرآني والرسول فيها هو الشيع والهادي والنور والشمس وغيرها من الألفاظ التي درج الشعراء في هذا النوع من الشعر استعمالها من مثل ما نجد عند (ابن جنان المرسي) الملقب بشاعر النبويات وهو من شعراء الأندلس في القرن السابع الهجري إذ يقول:

سلام على من جاء بالحق والهدى ومن لم يزل بالمعجزات مؤيدا

[1]- المقري، نفح الطيب، ج 5، ص48

سلام عليه إن نفسي مشوقة إليه فهل يدني اشتياقي أبعدا[1]

وواضح جدا بمعاينة الألفاظ المستعملة كيف أن الشعراء ينهلون من المعجم اللغوي نفسه في مدح الرسول لرسم صورة واحدة هي صورة الرسول الهادي المنقذ للبشرية من ضلالها، وهي ذاتها الصورة القرآنية وذاتها الألفاظ القرآنية أيضا، وهو ما يمكن معاينته أيضا في الأبيات التالية لـ(ابن الزمرك)؛ حيث المعجم اللغوي المستعمل هو ذاته المعجم القرآني الذي يستلهم منه شعراء المديح النبوي جميعا؛ يقول:

إليك رسول الله دعوة نازح خفوق الحسار من المطامع هيمان

وسيلتي العظمى شفاعتك التي يلوذ بها عيسى وموسى بن عمران

فأنت حبيب الله خاتم رسله وأكرم مخصوص بزلفى ورضوان[2]

وهو الأمر نفسه نلمسه في قصيدة أخرى قال فيها:

ثم صلاة الله دائمة على الذي باسمه في الذكر سماه

المجتبى وزناد النور ما قدحت ولا ذكا من نسيم الروض مسراه

والمصطفى وكمام الكون ما فتقت عن زهر زهر يروق العين مرآه

يا فاتح الرسل أو يا خاتمها شرفا والله قدس في الحالين معناه[3]

[1]- ابن الجنان الأنصاري، الديوان، تح منجد مصطفى بهجت، ص 74

[2]- المقري، نفح الطيب، ج 6، ص 315 .

[3]- المصدر السابق، ج 7 ، ص281

فالكلمات من مثل المجتبى، النور، المصطفى، فاتح الرسل، خاتمها، ...تكشف عن انتماء للمعجم الديني المستمد من القرآن الكريم.

1-2- الأسلوب:

لغة:

ورد في معجم التهذيب، الوجه والطريق والمذهب...، طريقة الإنسان في تعبير عن نفسه كتابة...، والأسلوب الأدبي هو الأسلوب الجميل ذوو الخيال الرائع، ذو التصوير الدقيق الذي يظهر في صورة المحسوس، والمحسوس في صورة المعنوي.[1]

اصطلاحا:

باعتبار المرسل الكاشف لنمط التفكير عند صاحبه، وباعتبار المتلقي هو سمات النص التي تترك أثرها على المتلقي، أي كان هذا الأثر.[2]

وتبعا لهذا التعريف نقترب من النص الشعري (لابن جابر) لنتعرف على طبيعة البيئة الشمولية، وما يسود فيها، وما يختفي ويتناقض، والملاحظ أن البنية اللغوية تكاد تعكس تقاربا بين الأسماء والأفعال إلى جانب الضمائر المنفصلة وأسماء الإشارة.

يقول فيه:

[1]- محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، ج12، تح: أحمد عبد العليم البردوني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص ص 435- 436.

[2]- سعيد أبو الرضا، النقد الأدبي الحديث، دار إسلامية، 1428، ص117.

بدا يوم بدر وهْو كالبدر حوْلَهُ كواكبُ في أفق المواكب تنجلي

وجبريل في جند الملائك دونه فلم تغن أعداء العدو المخذل

رمى بالحصى في أوجه القوم رمية فشرّدهم مثل النعام بمجهل

ففرو سراعاً يهربون كأنما تحوّل منهم بطشُ أيْدٍ لأرْجُل

وجاد لهم بالمشرفيّ فسلّموا فجاد له بالنفس كل مُجَّل

عبيدةَ سلْ عنهمْ وحمزةَ واستمع حديثهم في ذلك اليوم من عل

فهم عتبوا بالسيف عُتبة إذ عدا فذاق الوليد الموت ليس له ولي

وشيبة لما شاب خوفاً تبادرتْ إليه العوالي بالخضاب المعجَّل

وجال أبو جهل فحقّقَ جهله غداة تردّى بالردى عن تذلل

فأضحى قليبٌفي القليب وقومه [1]يؤمونه منها إلى شرٍّ منه.ل

بالنسبة للأسماء بدلالتها على الثبوت وتنوعها، ويوحي بأن هذا الثراء يتناسب مع طبيعة الحدث المعبر عن أعظم فتح في الإسلام (غزوة بدر) وما يمزه، إلى جانب الملائكة الكرام أسماء بعض الأعلام، الأسود (حمزة وعلي وعبيدة) إلى جانب الضمائر المنفصلة في مثل (هم، أنتم ...)، وأسماء الأشياء كمثل سيف، والأماكن مثل بدر، القليب، بالإضافة إلى أسماء الإشارة ومنها الدال على البعيد (ذلك).

يشير رفعة المقام وعلوهم في حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم والملائكة، وكل الأسماء الواردة توحي بمقام له صلة مع الخالق سبحانه، بانقياده وخضوعه وإحلال الشرك وأهله وتمزيق أوصراهم إنها عبودية شاملة، فكان مكان المعركة اسمه بدر، وكان فيها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في مقام نور البدر، ونور من الوحي أنجز الله له وعده، وأمضى كلمته بالنصر.

أما بالنسبة للأفعال فقد تنوعت أزمنتها بين الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا التنوع فإن كان يدل على شيء فإنه يدل على ارتباطه بالحدث في الأزل، وفي واقع المعركة، فكان التصوير يعكس الحقيقة القارئ كشاهد على مجرى الحدث (بدا، رما، جاء...)، كلها في الماضي، متصلة بما أسندت إليه فيما يدل على التصاقها بالمكان والفاعل فيها هو النبي صلى الله عليه وسلم.

كذلك فعل المضارع، الذي يعبر عن تصوير الحدث من حين بداية المعركة واستمرارها في المكان والزمان، حتى أحرز المسلمون النصر من عند الله، ثم فعل الأمر الذي وظفه الشاعر ليقرب الحدث من المتلقي، بحيث جعل المشهد معيشيا فيه حمزة وعبيدة وعلي وهم يفتكون يد الشرك في المبارزة قبل التحام الجيش، قال تعالى: **{كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}** البقرة الآية (249).

[1]- ابن جابر، الديوان، ص449.

وكانت تجليات المديحية التي تعبر عن شخص الرسول الكريم وتترجم قدرة الله على تأييده من خلال ذكره على لسان رسوله في التوراة والإنجيل، وقد عمل الشاعر (ابن جابر) على إبراز ذلك في الأبيات التي قال فيها :

نبي صدق جميع الرسل قد شهدت به فمبعثه في الكتب منقول

ولم تزل منزلات الكتب مخبرة عن صدقه يتبع التوراة إنجيل[1]

وفي قوله أيضا:

بدا يوم بدر وهْو كالبدر حوْلَهُ كواكبُ في أفق المواكب تنجلي

رمى بالحصى في أوجه القوم رمية فشرّدهم مثل النعام المجفل

وجاد لهم بالمشرفيّ فسلّموا فجاد له بالنفس كل مُجَّل

وأخبر ما أنتمْ بأسمعَ منهمُ ولكنهم لا يهتدون لِمقْوَل[2]

واهم التجليات التي تحدث عنها (ابن جابر) عن مناقبه صلى الله عليه وسلم ذكره لانتصاراته الحربية ومنها انتصاره في غزوة بدر الكبرى، ووصفها وصفا دقيقا، استمده من القرآن الكريم وكتب السيرة، مركزا فيما يتصل بالمديح النبوي على بطولة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، ومتحدثا عن رميه بالحصى التي رمى بها

[1]- يوسف بن إسماعيل النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، ص95.

[2]- ابن جابر، الديوان، ص449.

في أوجه المشركين، فأربكتهم وأصابت أعينهم تتقهقر بإذن الله، وهو ذكر مناسب جدا لشحذ الهمم بما أن العصر هو عصر ضياع الأندلس بسبب التخاذل وفقدان الشجاعة والثقة بالله في نصرة المسلمين.

وفي الأبيات الشعرية الآتية لـ(ابن الزمرك) نلمح الملمح الأسلوبي نفسه، يقول:

خير البرية مجتباها ذخرها ظل الإله الوارف الأفياء

تاج الرسالة ختمها وقوامها وعمادها السامي على النظراء

لولاه للأفلاك ما لاحت بها شهب تنير دياجي الظلماء

ذو المعجزات الغر والآي الألى أكبرن عن عد وعن إحصاء

قد بشر الرسل الكرام ببعثه وتقدم الكهان بالأنباء

أسمى بها الإسلام يشرق نوره والكفر أصبح فاحم الأرجاء

هو آية الله التي أنوارها تجلو ظلام الشك أي جلاء

والشمس لا تخفى مزية فضلها إلا عن ذي المقلة العمياء

يا مصطفى والكون لم تعلق به من أبعد أيدي الخلق والإنشاء

يا منظر الحق الجلي ومطلع الـ نور النبي الساطع الأضواء

يا ملجأ الخلق المشفع فيهم يا رحمة الأموات والأحياء

يا آسي المرتضى ومنتجع الرضى ومواسي الأيتام والضعفاء [1]

[1]- المقري، نفح الطيب، ج 5، ص48

فالجمل في معظمها اسمية بما تحمله من معاني الاستمرارية والثبوت، والأسماء في صيغها مفعولات كونها صفات للرسول بما تحيل عليه المفعولية من معنى الرسالة والمهمة المرسل بها فهو المجتبى والمصطفى والمواسي والمرتضى والملجأ...، مع استعمال واضح لأسلوب النداء الذي يحيل على الاستدعاء والاستجداء والتشفع.

2- الصورة الشعرية

يقول سيسيل دي لويس: «أي تصرف صائب للصورة الشعرية، لا بد أن يقوم على نظرية محددة ودقيقة الخيال».[1]

علما أن الخيال «قوة تصور نستطيع بواسطتها إيجاد صور ذهنية نجسدها بالكلمات».[2]

وانطلاقا من التعريف الأول، نستخلص أن الصورة الشعرية تقوم أساسا على عامل عقلي تصوري مجرد تماما وهو الخيال، الذي يعبر عن الأشياء بالصورة الحقيقية أو المختلفة مع مراد الدوافع النفسية بوظائفها العليا، وعليه فإن أي محاولة لإبراز المعنى في الصورة تقارب الحس، أكثر لإمتاع المتلقي أو إبلاغه، أو بغرض التأثير فيه، فإنه لا بد من سبيل فعال لتقريب المشهد أو الموقف والأحداث التي تتخللها بطريقة تستلزم الدقة وحسن التصوير، وهذا ما تعكسه الأبيات التي بين أيدينا في شعر ابن جابر، إذ تصور لنا لوحة فنية تتسامى في الوجود عقيدة وعبادة وخلق ومعاملة في غزوة بدر، كأنما نحيا أو نعيش حقيقتها اليوم بوجه آخر في ذلك الزمان، فأوجه البيان المتنوعة في الأبيات المذكورة، وقبل أن نوردها، نعرف بالبيان الذي هو ركن الأساسي من البلاغة، ورد في قول الله تعالى: **{خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَان (4)}** الرحمان الآية (4/3)، وقول النبي صلى الله عليه وسلم «إن من البيان لسحرا» البخاري 5767، وعليه فإن البيان هو الفصاحة والنسل، أو إظهار المقصود بأبلغ لفظ.

[1]- سيسيل دي لويس، الصورة الشعرية، تر: د. جابر احمد عصفور، ط1، نشر وطبع دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ص84.

[2]- المرجع نفسه، ص54.

2-1- التشبيه:

«هو التمثيل وعند علماء البيان مشاركة أمر لأمر في معنى بأدوات معلومة».[1]

إذ نستخلص من التصريف، هو أن التشبيه تنطوي تحته المشاركة والتماثل بمعنى التقارب في الصفات أو في الإنجازات، وهذا يعني أن المشبه أقل درجة من المشبه به على مستوى قد يكون في ذلك في التكوين أو في البنية أو في الشدة أو في الصورة.

وهذا ما يترجمه قول الشاعر:

بدا يوم بدر وهو كالبدر حوله الكواكب في أفق المواكب تنجلي[2]

حيث شبه النبي صلى الله عليه وسلم بالقمر حين تلألأ له، حين صار له بدرا ليلة التمام، ذلك في منزلته الرفيعة بين أصحابه وفي مقامه الأعلى، من خلال نور الوحي الذي ينعكس عليه والنور الذي يعكسه الإيمان في صبره، موصولا بربه وبه كان يستنير أصحابه، مترجما ذلك في هديه فيثبتون من خلاله فتقوى عزيمتهم على المضي في نصرة الله ورسوله، حقا إنه لا نور يستضاء به، وهو كذلك قبل بداية القتال وفي أثناء الغزو وبعدها، يتضرع ويبتهل إلى ربه ويحث أصحابه على القتال.

كما يمدح الشاعر في بيت آخر النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول ابن جابر:

إن تحسب الرسل سماء قد بدت فإنه في أفقها نجم هدى[3]

---

[1]- أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تح: يوسف الصميعي، بيروت، ص219.

[2]- ابن جابر، الديوان، ص449.

[3]- المصدر نفسه، ص190.

فيتجلى في البيت تشبيه بليغ، إذ يرتقي الشاعر في مستوى مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم، من مستوى البدر إلى النجم الذي يصدر عنه الضوء، ولا يستضيء بغيره، فهو كذلك بين الرسل ومنزلته ترتقي إلى أعلى من ذلك قدرا وشرفا.

تحتل الصورة التشبيهية جانبا كبيرا من المدائح النبوية، وكثرة الشعراء في استخدام التشبيه، فالتشبيه أسلوب يكثر منه في الشعر، وتوجد أمثلة وشواهد من الأبيات الشعرية لشعراء بني الأحمر في تجسيد هذا التصوير البياني.

توجد في أشعار ابن جابر وابن الخطيب عناصر التشبيه التي وظفت للتعبير عن المديح النبوي، على نحوها نجد في قول ابن الخطيب:

ولا كمثل كتاب الله معجزة تبقى على الدهر إن ولى وإن ذهبا[1]

وقول ابن جابر:

وكن بصحب رسول الله مقتديا فإنهم للهدى كالأنجم الزهر[2]

فطرفا التشبيه (الرسول) و(كتاب الله)، هما من الأشياء المحسوسة، أما عن العنصرين الآخرين وهما الأداة ووجه الشبه، فالأداة المستعملة في التشبيه هنا هي الكاف.

1- لسان الدين بن الخطيب، مرجع سابق، ص266.

2- ابن جابر، مرجع سابق، ص215.

2-2- الاستعارة:

قبل الحديث عن طبيعة الاستعارة وجمالها في الأسلوب وعلى المعنى، يجدر بنا أن نقدم لها تعريفا في "أسرار البلاغة"، أعلم أن الاستعارة أمد ميدانا وأشد افتتانا وأوسع ساعة وأبعد غورا وأذهب نجدا في الصناعة وغورا.[1]

وتظهر الاستعارة عند الشاعر في الأبيات الآتية في مظهرها الصريح، في قول ابن زمرك:

يا حسرة مر الصبا وانقضى وأقبل الشيب يقص الأثر[2]

وكذلك في قول لسان الدين بن الخطيب:

أقام على حب النبي وآله وأشرب التقوى ربه الحل والعقد

صدعت بأمر الله في جنباتها فألبسك التقوى وقلدك العضدا[3]

في البيت الأول يصور الشاعر المشيب بالإنسان الذي بلغ من الكبر، وحذف المشبه، وأبقى على المشبه به، وهذا يؤدي إلى معنى الاستعارة التصريحية، وهو القول نفسه على البيتين الآخرين، حيث شبه التقوى بسائر الناس أن يشرب وأخرى بلباس فاخر يلبس، وفي الحالتين حذف المشبه وأبقى على المشبه به، فهي أيضا استعارة تصريحية، وقد ازداد المعنى وضوحا والأسلوب جمالا، إذ يرى في البيت الأول الشيب بآثاره حينما يشتعل الرأس شيبا يجلى على صاحبه بمظهر سواءا كان كبيرا أو صغيرا في مظهر الإنسان على قرب في وضوحه.

أما عن التقوى فإن محلها القلب وهي من سمات الإيمانية الرفيعة التي توصل صاحبها إلى أعلى الدرجات في الدنيا بسلوكه وتدخله في الآخرة إلى الجنة، فهي بعد الإيمان بالله تحتل المرتبة الاعلى، وبخاصة إذا كان الأمر

[1]- أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع)، ط4، دار الكتب العلمية، ص259.

[2]- محمد بن يوسف الصريحي، ديوان ابن زمرك الأندلسي، ط1، تح: محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، ص557.

[3]- لسان الدين بن الخطيب، مرجع سابق، ص484.

يتصل بقلب النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا كان هناك من الخلق أتقياء فإن أتقاهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن الشاعر لصادق في عاطفته وإحساسه، وشعوره ومعايشته بمدلول اللفظة ومعناها فجعلها زينة شرف بها النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا.

في قول (ابن جابر):

لا تنفق العمر سوى حب من هو الذي في سنن الحق جرى[1]

حيث شبه العمر بالمال، حذف المشبه به، وترك احد من لوازمه (الإنفاق) على سبيل الاستعارة المكنية.

في قول (ابن الخطيب) أيضا في مدح سيد الخلق:

أقرضت فيك الله صدق محبتي أيكون تجري فيك غير ربيح[2]

ففي هذا البيت تصوير اعتمد على الاستعارة، حيث استعار (التجارة) بما قام به من أعمال توجب محبة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك استعار (الربح) لثواب وأجر الآخرة.

وهي الاستعارات مكنية وتصريحية (تجلو الظلام/الشمس لا تخفي مزية) تتخلل الصور البيانية لـ(ابن الزمرك) في قوله:

هو آية الله التي أنوارها تجلو ظلام الشك أي جلاء

والشمس لا تخفى مزية فضلها إلا عن ذي المقلة العمياء[3]

---

[1]- ابن جابر، مرجع سابق، ص47.

[2]- لسان الدين بن الخطيب، مرجع سابق، ص383.

[3]- المقري، نفح الطيب، ج 5، ص48

2-3- الكناية:

أ-لغة: جاء في التعريف «الكناية أن تتكلم بشيء وتريد غيره وكنى عن الأمر بغيره يكني كناية: يعني إذ تكلم بغيره مما يدل عليه.[1]

ب- اصطلاحا: حاء في معجم المصطلحات أن الكناية «لفظ أطلق وأورد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي».[2]

فقد وظف ابن جابر وكذا ابن الخطيب الكثير من الكنايات في مدائحها النبوية، والتي نذكر منها على وجه الاستدلال، يقول ابن جابر:

لجاهك يا خير الأنام توجهي إذا الأم في شغل عن الرضعاء

فيها كناية عن يوم القيامة.

ثم نوى ملبيا ثم مضى حتى رأى ذات السناء والسنا[3]

كناية عن الكعبة الشريفة.

أما (ابن الخطيب) فوظف هو الآخر في أشعار المديح عنده مجموعة من الكنايات، نذكر منها قوله:

فؤاد على جمر البعاد مقلب يماح عليه للدموع قليب

---

[1]- محمد أحمد قاسم، دكتور محي الدين ديب، علوم البلاغة، طرابلس، لبنان، ط 1 ، 2003م، ص241.

[2]- وهبة المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، دط، دار اليمامة للبحث والترجمة، لبنان، 1984م، ص171.

[3]- ابن جابر، مرجع سابق، ص ص 38-53.

كناية عن الشوق إلى زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويقول كذلك:

وفي ليلة الميلاد أكبر آية تخر الجبال الراسيات له هدا[1]

كناية عن عظمة ليلة مولد النبي الأعظم.

[1]- لسان الدين بن الخطيب، مرجع سابق، ص ص 323-483.

3- البديع

يقول الخطيب القرويني محمد بن عبد الرحمان في كتابه التلخيص «وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة».[1]

ومعنى هذا ان البديع ينحصر في حسن الكلام مع المطابقة ووضوح الدلالة، بمعنى أن يكون الكلام متسقا منسجما لا لبس فيه.

أما عند الجاحظ فيراه مقصورا على العرب من أجلهم فاقت لغتهم كل لغة..

والشاعر الراعي كثير البديع في شعره، وكلمة البديع عنده تعني الصور والمحسنات اللفظية والمعنوية، وإن كان لم يوضحها توضيحا دقيقا، ولم يوضع (الجاحظ) لذلك قواعد.[2]

في البديع سنعرج على المبالغة والجناس والطباق.

3-1-المبالغة:

وهي عند السكاكي أن يدعى لوصف بلوغه في الشدة والضعف حدا مستحيلا أو مستبعدا.[3]

إنها من محاسن الكلام، وهي بإفراطها في الوصف تجسد أسمى المعاني، وأهم الدلالات، وأعظم التأثيرات على المتلقي، سواء كان القول مدحا أم هجاءا.

---

[1]- عبد العزيز عتيق، في البلاغة – علم البديع، دار النهضة، بيروت، ص 7.

[2]- المرجع نفسه، ص12.

[3]- عبد العزيز عتيق، مرجع سابق، ص101.

والبيت الآتي يترجم هذا المعنى:

وشيبة لما شاب خوفا تبادرت إليه العوالي بالخضاب المعجل[1]

ذلك تعبير عن الرعب الذي ألم شيبا، وهو أخو الطاغية عتبة حين تصدى له علي رضي الله عنه، فما كان منه إلا أن خارت قواه أمام ثبات أسد من أسود الله، فاستسلم ولقي حذفه بضربة سيف قاضية أردته قتيلا، فمن شدة الخوف الذي رعاه تلبسه حتى أحس بالشيب قبل آوانه، وهذا في تصوير الشاعر الدقيق والمجسد للحقيقة، كما عاشها شيبا خلال المبارزة، ويلاحظ فيها المبالغة.

3-2- الجناس:

أ- لغة: هو مصدر جانس الشيء الشيء شاكله، واتحد معه في الجنس.

ب- اصطلاحا: تشابه الكلمتين في اللفظ مع اختلاف في المعنى، وهو تام وناقص.[2]

ويتجلى الجناس في المديح النبوي عند الشاعر ابن زمرك في قوله:

والعمر قد مر كمر السحاب والملتقى بالله عما قريب

وكذلك في البيت:

واخجلتا والرحل قد قوضا وما بقي في الخبر غير الخبر[3]

والملاحظ أن جناس تام في (مر، كمر) و(الخُبر والخبر).

---

[1]- ابن جابر، مرجع سابق، ص449.

[2]- أحمد مصطفى المراغي، مرجع سابق، ص354.

[3]- محمد بن يوسف الصريحي، ديوان ابن زمرك الأندلسي، ط1، تح: محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، ص ص 556-557.

يتجلى الجناس الناقص في قول الشاعر لسان الدين بن الخطيب:

ونجعل فيها منك عيدا ومشهدا نشيع به من الذكر الحكيم شهدا[1]

ذلك أن كلمتين مشهدا وشهدا متجانسين إلا فيما نقص من الثانية ممثلا في حرف ميم.

في قول ابن الخطيب:

أيا خاتم الرسل المكين مكانه حديث الغريب الدار فيك غريب

فؤاد على جمر البعاد مقلب يماح عليه للدموع قليب

فوالله ما يزداد إلا تلهبا أ أبصرت نارا ثار عنه لهيب

هذه الجزيرة لا تزال عزيزة محفوظة بلا يا إمام ولاتها.[2]

فالملاحظ في هذه الأبيات أنها احتوت كلها على محسن الجناس، حيث جانس بين لفظتي (الغريب) و(غريب)، (مقلب) و(قليب)، و(تلهبا) و(لهيب)، و(الجزيرة) و(عزيزة)، مما دل على شدة ولعه بهذا اللون من البديع اللفظي.

[1]- لسان الدين بن الخطيب، مرجع سابق، ص 483.

[2]- المرجع نفسه، ص ص 323- 328.

3-3-الطباق:

لغويا قال الخليل: «طابقت بين الشيئين إذا جمعت بينهما على حذو واحد وألزقتهما».[1]

اصطلاحا جاء في معجم المصطلحات «هو الجمع بيين الضدين أو معنيين متقابلين في الجملة».[2]

ويعني هو الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة.

انطلاقا من هذا المفهوم وحينما نتحسس أبيات القصائد المديحية نجد قول ابن الخطيب:

وأنت ملاذ الخلق حيا وميتا وأكرمهم ذاتا وأعظمهم مجدا.[3]

نجد طباق في الكلمتين حيا وميتا، حيث جمع بين (الحي) و(الميت) وهما ضدان تعبيرا عن تعظيمه للرسول خير الأنام.

وقوله كذلك:

فلولاك ما بان الظلال من الهدى ولا امتاز في الأرض المكب من الأهدا

وإذا النهار جلى الظلام وأتلعت من ميسمها الغزالة جيدا[4]

فقد جمع البيتين لفظتين متضادتين هما (الظلال) و(الهدى) و(النهار) و(الظلام).

---

[1]- محمد أحمد قاسم، دكتور محي الدين، علوم البلاغة، طرابلس، ص 65.

[2]- وهبة المهندس،ن مرجع سابق، ص130.

[3]- لسان الدين بن الخطيب، مرجع سابق، ص481.

[4]- المرجع السابق، ص ص 482- 487.

وتتردد في المدائح النبوية لابن جابر الكثير من ألوان البديع، فمن الطباق ما نجده في الأبيات الآتية في قوله:

شفاعتك العظمى دواء خطيئتي ولو جئت من جرمي بأعظم داء

ورأى المشارق والمغارب إذ له زوي الوجود بشرقه وغربه

داء الأسى في القلوب قد نفث والقرب نعم الدواء لو حدثا

فحق بن حق وأبطل باطل وأدهش ذو عقل واخرس مفصح

وعلى صحابته الألى للكفر في شرق وفي غرب بهم تدويخ[1]

تعددت المطابقات في هذه الأبيات، فقد جمع في البيت الأول بين لفظتين متضادتين وهما: دواء وداء. في البيت الثاني فالطباق في كلمتين: المشارق والمغارب، وأيضا كلمة شرقه وغربه.

وفي البيت الثالث بين الداء والدواء، ونجد الطباق في البيت الرابع بين كلمتين الحق والباطل.

والبيت الأخير طباق بين شرق وغرب.

[1]- ابن جابر، مرجع سابق، الصفحات 38- 68- 115- 141- 151.

4- موسيقى الشعر:

4-1-الوزن:

وزن بيت الشعر هو تقطيعه قياسا على تفاعيله، وهو مجموعة الأنماط الإيقاعية للكلام المنظوم، التي تتألف من تتابع معين لمقاطع الكلمات، أو التي تشمل على عدد ما من تلك المقاطع اللغوية.[1]

وعليه فإذا كان الشعر كلام موزون ذو المعنى، فإن الوزن أساسي في العواطف والجمال، والأحاسيس يترتب عليه اعتدال المزاج النفسي، واستشعارها بالرضا والسكون، وهذا ما يتجلى في البيت في قول ابن جابر، وهذا البيت عن البحر الطويل:

إِلَى السَيِّدِ الْمَبْعُوث لِلنَّاسِ رَحْمَةً شَفِيعُ الْوَرَى حَسْبِي مَلَاذًا بِهِ حَسْبِي[2]

O//O/O//O/O//O/O// O/O/O/O/O//O/O/O//O/O//

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن فعولن فعولن

[1]- أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، دار عالم الكتب، ص 2434.

[2]- ابن جابر، مرجع سابق، ص 72.

قول ابن جابر أيضا في البيت الشعري من البحر الكامل:

رحلوا فكيف يطيب بعد ثواء أم هل لداء الشوق منك دواء[1]

/O///O//O///O//O/// /O///O/O/O/O//O/O/

متفاعلن متفاعلن متفاعل متفاعلن متفاعلن متفاعل

عدم التزامهم ببحر واحد في قصائد المديحية تنوعت البحور الشعرية.

4-2-القافية:

هي آخر جزء في البيت الشعري، وقد يكون كلمة أو بعضها أو كلمة وبعض أخرى، أو كلمتين وهي من آخر ما سكن في البيت الشعري إلى أول ساكن يليه مع المتحرك قبله.[2]

ومن تم فهي أصوات تشد السمع بتكرارها وإحداثها جرسا موسيقيا يبعث على الارتياح والانسياب النفسي والتفاعل مع الحدث.

مثلا كلمة ربيح من البيت الآتي في قول لسان الدين بن الخطيب:

أقرضت فيك الله صدق محبتي أيكون تجري فيك غير ربيح[3]

[1]- المرجع نفسه، ص 23.

[2]- أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص1847.

[3]- لسان الدين بن الخطيب، مرجع سابق، ص383.

4-3- التكرار:

إنه الإتيان بعناصر متماثلة في مواضيع مختلفة من العمل الفني، وهو أساس الإيقاع بجميع صوره، فنجده في الموسيقى كما نجده أساسا في القافية.[1]

انطلاقا من هذا الفهم فإن الموسيقى الداخلية من خلال تواتر الكلمات على اختلاف أنواعها، تحدث أثرا في النفس يتناغم مع طبيعة الكلمات، وحسن ترددها، وهذا ندركه في البيت الآتي:

أيا خاتم الرسل المكين مكانه حديث الغريب الدار فيك غريب[2]

كما يتبين تكرار الألفاظ في البيت الواحد، إلى جانب القافية المتكرر فيها حرف الباء.

4-4- الإيقاع:

أظطراد الفقرات الزمانية التي يقع فيها أداء صوتي، ما يحدث أثرا سارا على النفس لدى سماعه، ينجم عادة عن زحافات وعلل المتفاعلة مع النغم الصوتي العام للقصيدة.[3]

يترجم مستويات التناغم المقطعي الموسيقي لأنواعه الطويلة والقصيرة.

كما يتبين ذلك في البيت:

لماذا عسى يثني عليك مقصر ولم يأل فيك الوحي مدحا ولا حمدا[4]

---

[1]- أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص1919.

[2]- لسان الدين بن الخطيب، مرجع سابق، ص 323..

[3]- أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص2481.

[4]- لسان الدين بن الخطيب، مرجع سابق، ص 476.

في مثل: ما / ذا / ع / سى يثـ/ني

وبعد هذه الرحلة الفنية في أشعار المديح النبوي زمن بني الأحمر يمكننا القول إنها ظلت على النموذج الذي ابتدعه شعراء المديح الأوائل فاللغة ظلت محافظة على مرجعيتها الدينية فالألفاظ من مثل النور والشمس والكوكب والضياء والمصطفى وخاتم النبيين في تسمية الرسول صلى الله عليه وسلم أو وصفه ظلت تكرر ما هو مستعمل في أشعار من امتدح الرسول، ولم تضف البيئة الأندلسية بما فيها من جمال الطبيعة وخصوصية النبات والبيئة شيئا على ما يبدو، بل لو أننا حذفنا اسم الشاعر الأصلي واستبدلناه باسم غيره لما أثار ذلك في النسبة شكا. والأمر ذاته بالنسبة للصور وللإيقاع، بل حتى المضامين فيما اشتملت عليه من فكرة التذكير بالتاريخ الإسلامي والنبوي الحافل بالانتصارات من أجل المساهمة في تغيير الأوضاع التي آلت إليها الأندلس بسقوطها في يد النصارى ظل استنتاجا قد يقول به الدارس دون أن يقع عليه بشاهد يثبت المغزى من هذا التمثيل، الأمر الذي قد يسمح لنا بالقول بأن هذه القصائد من قصائد المديح الديني قد أثرت فيها المنسباتية دون غيرها، فهي قد قيلت في مناسبات دينية بعينها مما يجعلها أسيرة ذلك الإطار العام.

بعد هذه الرحلة في قصيدة المديح النبوي في الشعر الأندلسي في عهد بني الأحمر، توصلت إلى جملة من النتائج، وهي كالآتي:

- تعدد الأغراض الشعرية في العصر الاندلسي، ومن بين هذه الأغراض التي وجدت في العصر الأندلسي الوصف والهجاء والمدح، وظهرت قصائد الشعرية حسب كل غرض يتميز به كل شاعر ويتفنن فيه.

- ظهور المديح النبوي عبر العصور واهتمام الكثير من الشعراء بمدح سيد الخلق، لأنه لا يوجد أفضل مدح من مدح رسولنا الكريم، ما يصدر من صدق عاطفة الشاعر، فأبدع الشعراء من صدر الإسلام إلى يومنا مدح النبي هذا في الكريم صلى الله عليه وسلم.

- تنوعت الأغراض الشعرية في عصر بني الأحمر، وانتشرت ألوان كثيرة من الشعر في بني الأحمر كالوصف والرثاء والهجاء والمدح وشعر الحنين والديني.

- اهتمام الأندلسيين بشعر المديح النبوي من خلال الإشادة بخصاله والحنين إليه، بوصفهم الشوق لزيارة الديار المقدسة والحديث عن معجزاته، والإعجاب الكبير بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم.

- برز المديح النبوي في عصر بني الأحمر من اتجاهات مختلفة ساهمت في انتشار المديح لدى الشعراء، حيث كانت الطبيعة السياسية والاجتماعية والثقافية في عصر بني الأحمر، فتحفيز حكام بني الأحمر والحرص على المحافظة على المظاهر الدينية وإحياء ذكرى الرسول صلى الله عليه وسلم، فالرسول عندهم هو نور ستضاء به الأكوان.

- جاءت في الأبيات الشعرية في قصيدة المديح النبوي الكثير من الصور، التي وإن أحسنوا توظيفها فقد ظلت تقليدية محافظة على كونها استعارة وكناية، وبالرغم من تفننوا في استخدام المحسنات البديعية، مثل

الجناس والطباق وجمالية الأسلوب واللغة فقد ظلت هي الأخرى تقليدية محافظة وملتزمة بنموذج القول الذي خطته قصائد المديح النبوي منذ ظهورها.

- اتسم شعر المديح النبوي في عصر بني الأحمر بتكرار نموذج المديح النبوي الذي عرفه الشعر العربي قبل هذا العصر؛ فالمضامين مكررة، وطريقة مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بذكر خصاله وصفاته ومعاركه مكررة، والاعتماد في الوصف على لغة المعجم القرآني هي أيضا مكررة مما قد يسمح بالقول بأن قصيدة المديح النبوي في عصر بني الأحمر ظلت تقليدية في مضمونها ولغتها وأسلوبها، وحتى من ناحية الإيقاع لم تحظ بالتجديد أو لم يستثمر التجديد الشكلي الذي عرفه الشعر العربي في الأندلس متمثلا في الموشح بتنويعاته الإيقاعية.

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: المصادر

1-ابن الأثير، المثل السائر في الأدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، مصر، ط1، ج.1

2- أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج 5 دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1971.

3- أيمن يوسف ابراهيم الجرار، الحركة الشعرية في الأندلس، عصر بني الأحمر، رسالة ماجستير، جامعة النجاح فلسطين، 2007.

4- ابن جابر، ديوان محمد بن أحمد بن علي، ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونين أو العين في مدح سيد الكونين، تح: فوزي الهيب، ط1، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، 2005م.

5- أبو الجنان الأنصاري، الديوان، تح منجد مصطفى بهجت.

6- ابن خاتمة، أحمد بن علي، الديوان، ت: محمد رضوان الداية، ط1، دار الفكر، دمشق، 1994م.

7- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1.

8- لسان الدين بن الخطيب ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، تح: محمد مسعود جبران، ط 1، دار المدار الاسلامي، بيروت،، لبنان، 2009م.

9- لسان الدين بن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ت: أحمد مختار العبادي، دار الكتاب العربي.

10- لسان الدين بن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، ت: يوسف علي الطويل، ط 1،، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

11- لسان الدين بن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، ت: محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1973م.

12- محمد بن يوسف الصريحي، ديوان ابن زمرك الأندلسي، ط 1، تح: محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي.

ثالثا: المراجع

1-إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، دار الثقافة بيروت، ط 1 ، 1960 .

2- أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تح: يوسف الصميعي، بيروت.

3- أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع)، ط4، دار الكتب العلمية.

4- أنخل جنتاليثا بالنثا، تاريخ الفكر الأندلسي، تر: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دت.

5- بسبح أحمد، لسان الدين بن الخطيب عصره بيئته حياته آثاره، ط1 ، دار الكتب العلمية، بيروت.

6- البستاني بطرس، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، حياتهم وآثارهم ونقد آثارهم، دار نظير عبود، بيروت، د ت.

7- التميمي قحطان، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، بيروت، دار المسيرة.

8- حاوي إليا، فن الهجاء وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، 1988م.

9- حسن كامل الملطاوي، رسول الله في القرآن الكريم. دط. دار المعارف القاهرة .

10- حمدان حجاجي، حياة وآثار ابن زمرك (شاعر الحمراء)، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1989م.

11- الحمصي أحمد الحمصي أحمد، أبن زمرك الغرناطي سيرته وأدبه، ط1، بيروت، 1985م.

12- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح الأستاذ محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة .

13- الركابي جودت، في الأدب الأندلسي، ط2، دار المعارف، 1966م.

14- زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي ط1 منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت .

15- سراج الدين محمد، المديح في الشعر العربي، دط، دار الراتب الجامعية، بيروت لبنان .

16- سعيد أبو الرضا، النقد الأدبي الحديث، دار إسلامية، .1428

17- سيسيل دي لويس، الصورة الشعرية، تر: د. جابر احمد عصفور، ط 1، نشر وطبع دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة.

18- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الأندلس، ج8، دار المعارف، القاهرة، دت.

19- صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، ط1، دار الميسرة، عمان، الأردن، 2007م.

20- الطويل يوسف، مدخل إلى الأدب الأندلسي، ط1، بيروت، دار الفكر، 1991م.

21- عبد الرحمان شيحة، الوطن في الشعر الأندلسي، دراسة فنية، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، 1997م.

22- عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 7، ت: تركي فرحان المصطفى، ط 1،، دار إحياء التراث العربي، بيروت، .1999

23- عبد العزيز عتيق، الأدب في الأندلس، دار الآفاق العربية، القاهرة.

24- عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط3، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م.

25- عبد العزيز عتيق، في البلاغة – علم البديع، دار النهضة، بيروت.

26- عبد العزيز محمد عيسى، الأدب العربي في الأندلس، مطبعة الاستقامة، القاهرة.

27- عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، دت.

28- عمر إبراهيم توفيق، الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس موضوعاته وفنونه، ط 1، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، 2012م.

29- عنان محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط 3، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

30- غازي طليمات، عرفان الأشقر، الشعر في العصر الأموي ط1 دار الفكر مكتبة الأسد، دمشق.

31- الفتح خاقان، مطمع الأنفس ومسرح التأنس، ط2، دار الغصون، بيروت، 1989م.

32- أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط3، المصرية العام للكتاب، ج.1

33- قاسم القحطاني، ابن فركون الأندلسي، شاعر غرناطة، ط1، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2009م.

34- قدامة بين جعفر، نقد الشعر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1989م.

35- محمد أحمد قاسم، دكتور محي الدين ديب، علوم البلاغة، طرابلس، لبنان، ط1 ، 2003م.

36- محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، ج 12، تح: أحمد عبد العليم البردوني، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

37- محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي، ط1، دار الفكر، دمشق.

38-محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي – ليبيا، 2001م.

39-محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط 4، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1997م.

40-محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دط، دار المعارف، القاهرة، 1962م.

41-محمود علي المكي، المدائح النبوية، ط1، مكتبة لبنان، دار نويار للطباعة، القاهرة.

42-محي الدين أبو سقرا: مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب العربي ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

43-المراكشي عبد الملك، الذيل والتكملة، تح: محمد بن شريفة وإحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

44-النباهي أبو الحسن، تاريخ قضاة الأندلس، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م.

45-يوسف بن إسماعيل النبهاني، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، المطبعة الأدبية، بيروت 1320.

46-يوسف فرحات ويوسف عيد، معجم الحضارة الأندلسية، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، دت.

رابعا- المعاجم

1-إبراهيم مدكور: معجم الوسيط، ج2، ط2، دار الدعوة، إسطنبول تركيا، 1989 .

2- أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، الطبعة الأولى 1459/ 2008م، دار عالم الكتب.

3- الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ترتيب وتحقيق عبد الحميد الهنداوي، الجزء الرابع، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلميةِ بيروت – لبنان .

4- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آباري، القاموس المحيط. طبعة جديدة كاملة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .

5- ابن منظور: لسان العرب، مادة (م.د.ح) ط1، دار صادر بيروت لبنان مج 1977.

6- وهبة المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، دط، دار اليمامة للبحث والترجمة، لبنان، 1984م.

خامسا: المجلات

1-لؤي صهيود فواز، الطبيعة الاندلسية وأثرها في استثمار اللون الشعري، مجلة كلية التربية الأساسية، ع 73، جامعة ديالي، 2012م.

المحتويات	الرقم
دعاء	
شكر وتقدير.....	
الإهداء	
مقدمة	أ . ج
المدخل	13-5
الفصل الأول :المديح النبوي في عصر بني الأحمر	
1: **أغراض الشعر في العصر الأندلسي**	15
1-1- الهجاء	16-15
1-2- الوصف	18-17
1-3- الزهد	20-19
1-4- المدح	23-21
1-5- الغزل	25-23
1-6- الرثاء	26-25
2- المديح النبوي في العصر الأندلسي	30-26
3- الأغراض الشعرية في عصر بني الأحمر	31
3-1- الوصف	32-31

3-2- الرثاء	34-32
3-3- الهجاء	35-34
3-4- المدح	37-36
3-5- الغزل	38-37
3-6- الخمريات	40-39
3-7- شعر الحنين	41-40
3-8- الشعر الديني	42-41
4 المديح النبوي في عصر بني الأحمر	43
4-1- الجانب السياسي	45-43
4-2- البيئة الاجتماعية	46-45
4-3- الجانب الثقافي	46
4-4-الشعر في عصر بني الأحمر	49-46
5- شعر المديح النبوي في عهد بني الأحمر	53-49
الفصل الثاني :الدراسة الفنية	
1- اللغة والأسلوب	56-55
1-1- اللغة	63-56
1-2-الأسلوب	68-63
2- الصورة الشعرية	69

2-1- التشبيه	71-70
2-2- الاستعارة	74-72
2-3- الكناية	75-74
3- البديع	76
3-1- المبالغة	77-76
3-2- الجناس	78-77
3-3- الطباق	80-79
4- موسيقى الشعر	81
4-1- الوزن	82-81
4-2- القافية	82
4-3- التكرار	83
4-4- الإيقاع	84-83
الخاتمة	87-86
قائمة المراجع	93-89
فهرس المحتويات	97-94

ملخص:

شعر المديح النبوي من أغراض الشعرية الذي برز في الشعر الأندلسي والبحث في جماليات القول فيها معتمدين مناهج تقليدية حديثة.

وفي هذا البحث في قصيدة المديح النبوي في الشعر الأندلسي في عهد بني الأحمر محاولة لنفض الغبار عن هذا النوع من الشعر والخوض في جماليات القول فيه، مركزة على فترة من فترات التاريخ العربي في الأندلس وهي فترة بني الأحمر.

الكلمات المفتاحية:

-المديح النبوي، الشعر الأندلسي

-المديح النبوي في عهد بني الأحمر.